جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع البنات بالإسكندرية

دراسات
في التصوف النشأة والتطور

دكتور
محمد محمود أبو شحاته
دكتوراه في العقيدة والفلسفة
من كلية أصول الدين جامعة الأزهر
وعضو الجمعية الفلسفية المصرية

جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع البنات بالإسكندرية

دراسات

في التصوف النشأة والتطور

دكتور
محمد محمود شحاتة
دكتوراه في العقيدة والفلسفة
من كلية أصول الدين جامعة الأزهر
وعضو الجمعية الفلسفية المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من وجدت فيها الأمن والأمان
والإيمان إلى التي هيأت لي ظروف
البحث العلمي إلى محراب السكينة
إلى زوجتي أهدي هذا المؤلف العلمي
في الساعة الأولى التي ولد فيها تقديراً وعرفاناً.

المؤلف

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد الذى أرسى قواعد حرية الفكر على أصولها وأخرج الكلمة من عقالها حين نادى بتحرير الفرد من ذل العبودية لغير الله وأفسح المجال للمناقشة الهادفة الهادئة المتزنة البناءة الموسومة بالحكمة

أما بعد

فقد شرفتنى كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية إذ عهدت إلىّ بإلقاء محاضرات فى مادة التصوف ولقد أصاب من نفسى هذا التكليف بل هذا التشريف موقعاً ذلك إننى واحد من أولئك الشغوفين بدراسة هذا اللون من التعبد وقد كنت فى بعض فترات التاريخ ألقى محاضرات فى المحافل العلمية متحدثاً عن سلوك المتصوفة فى عباداتهم ورياضاتهم وأذواقهم وما إلى ذلك من الأحوال التى تعرض لهم والظاهر أنه قد آن لهذه النجوم المتفرقة أن يتكامل خلقها وأن تتحد عناصرها متضمنة معالجة التصوف الإسلامى كفكر ومضمون وقبل الخوض فى التفصيلات أجد لزاماً علىّ أن أبين المنهج الذى سألتزمه فسوف ألتزم التزاماً شديداً بالحرية الكاملة فى عرض آراء المؤيدين والمعارضين دون أن ألقى بنفسى من أتون هذا الصراع واقفاً على شاطئ هذا البحر دون السباحة العميقة حاولتها ولكن على مقربة من اليابس كى أكون فى أمن من الغرق . ولست أحرص على إدعاء انى قد خضت لجة هذا البحر وانما كنت فيه وسطاً لا أنا فى العمق ولا أنا على السطح أى أنها لا تعدو أن تكون محاولة لوضع إطار عام للتصوف ووضعه فى إطار فكرى محدد المعالم فان أصبت الهدف من وراء تلك المحاولة فتوفيق من الله وهدايته وإلا فحسبى اننى أوضحت الطريق ونهجت السبيل لمن يلى من الباحثين والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير .

الاسكندرية فى غرة ربيع الأول سنة ١٤١٠ الموافق ١٠/١/١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

يهمنا فى بداية بحثنا أن نقوم بتحديد هاتين اللفظتين (صوفى ومتصوف) فاذا تمكنا من اسناد هاتين الكلمتين الى اشتقاق لغوى فبها ، والا فليس أمامنا بد من اعتبار ذلك مجرد اطلاق يعبر عن معنى وصفى فقط أو على الاقل هو اصطلاح يراد به قوم بعينهم ينهجون سلوكا معينا فى اطراح الدنيا وراء ظهورهم والاقبال بكلية الهمة على الله تعالى .

والسؤال الذى يطرح نفسه : ما معنى كلمتى صوفى ومتصوف ؟ الواقع انه قد كثر الكلام حول الأشتقاق اللغوى لكلمتى (صوفى) يحاول البعض ان ينسبهم الى الصفاء او إلى الصف ، وهى تلك البقعة التى اعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لسكنى الفقراء من أهل المدينة حيث كان ينزلها من ليس له مكان يأوى اليه وقد وصفهم أبو نعيم بقوله : " هم قوم اخلاقهم الحق عن الركون إلى شئ من العروض وعصمهم من الأفتتان بها عن الفروض وجعلهم للمتجردين من

الفقراء لا يأوون الى اهل ولا مال ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا حال ، لم يحزنوا على مافاتهم من الدنيا ، ولا يفرحون الا بما أيدوا به من العقبى ، كانت افراحهم بمعبودهم ومليكهم ، وأحزانهم على فوت الاغتنام من اوقاتهم وأورادهم ، هم الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ولم يأسوا على ما فاتهم ولم يفرحو بما أتاهم ⋅ (١)

ولتشابه حال الصوفية مع هؤلاء رأى بعض الباحثين أن ينسبهم اليهم ، وقال آخرون ان الكلمة منسوبه الى "الصف" لانهم كانوا يسارعون الى حضور الصف الاول فى الصلاة ، وذهب المستشرقين الى ان مرد الكلمة الى (سوفيا) اليونانية قائلين ان العرب حينما فلسفوا عباداتهم حرفوا الكلمه واطلقوها على رجال التعبد والفلسفة الدينية وجعلوا اسم (التصوف) بدلا من (سوفيا) ومن ثم غدت النسبه اليها "صوفى وصوفية" ⋅

ومن قائل ان الكلمه منسوبه الى قوم فى الجاهلية عرفوا بالتنسك والانقطاع الى الله عند البيت الحرام ⋅

---

(١) الحلية لابى نعيم ص٣٣٧ ، ٣٣٨ ط السعادة جـ١ ⋅

فقد ذكر ابن الجوزى (ان قوما فى الجاهلية يقال لهم "صوف" انقطعوا الى الله عز وجل وقطنوا الكعبه فمن تشبه بهم فهم الصوفيه وينسبون الى "الغوث بن مر" الذى سمى "صوفه" لانه ماكان يعيش لامه ولد فنذرت لئن عاش لتحلق براسه صوفه ولتجعله ربيط الكعبه ففعلت قيل له صوفه ولولده من بعده .[1]

وآخرون رأوا ان الكلمه منسوبه الى "الصفة" وقال بعضهم انها منسوبه الى الصوفانه وهو نابت قليل الفائده وذكر آخرون انه نسبة الى " الصوف " الذى اختص القوم بلبسه واتخذوا منه رداءهم مخالفين بذلك الجماهير فيما يقبلون عليه من لبس فاخر الثياب .

---

(١) تلبيس ابليس " لابن الجوزى " ص١٥٦ ط ١ الكتانة الاسلامية .

مناقشة هذه الاراء

١ ـ فاما القول بأن الكلمة مشتقه من "الصفاء" فصحيح من ناحية المعنى وذلك لأنّ الصوفيه يشتغلون بمحاوله تصفية النفس من كدورة المادة وعلائق البدن .
ومع صحة هذا المعنى الا انه لايتمشى مع ابسط قواعد اللغة لان النسبه الى الصفاء هى صفوى لاصوفى .

٢ ـ وكذلك للرأى القائل بأن "الصوفى" انما سمى بذلك نسبة الى "الصفة" التى كان يأوى اليها بعض فقراء المهاجرين والانصار فصحيح انه يوجد تناسب بين الحياة التى كان يحياها اهل الصفة وبين حياة الصوفية من حيث الفقر والزهد والانقطاع والخلوه ... غيران ذلك لايصحح النسبة اللغوية اذ النسبة الى صفة (صفّى) لاصوفى .

٣ ـ وأمّا الرأى القائل بأن الصوفى من الصَفة فبعيد كذلك من حيث اللغة اذ لوكان ذلك صحيحا لترتب عليه ان تكون النسبة الى الصفه هى صِفّىِ لاصوفى .

٤ ـ ومثله الرأى القائل بأن الكلمة منسوبة الى الصف الاول من الصلاة فبعيد أيضا من ناحية اللغة اذ لو كان كذلك لغدت النسبة اليها صَفِّي .

٥ ـ وأما الرأى القائل بأن الكلمة منسوبة الى " سوفيا " اليونانية والذى تتزعمه الكثرة الغالبه من المستشرقين قائلين أن العرب حرفوا هذه الكلمة عندما أرادوا ان يفلسفوا عباداتهم فجعلوا اسم (التصوف) مرادفا لكلمة "سوفيا" التى تعني الحكمه وهو تعنت فى النسبه لايؤيده المنطق العلمى ، وإنه لتجريح عرف به بعض المستشرقين فى تعمد الطعن على الثقافه الاسلامية بنسبتها الى غيرها من الثقافات للتدليل على انها ليست أصلية فى نشأتها بل هى مكتسبه من غيرها (١) .

٦ ـ وأما الرأى القائل انهم منتسبون الى قوم فى الجاهليه يقال لهم صوفية فيدحضه ان الراوى هو "محمد بن ناصر" وهو احد الرواه الذين أولعوا بالابتكار والاختراع ونسج الاقاصيص

(١) شخصيات صوفية (طه عبد الباقى سرور) ص٢٩ .

والذين نقلوا عن روايته " كابن الجوزى " الزمخشرى والفيروزابادى ليسوا من رجال التصوف ، وتأييد فريق من رجال الاستشراق لا يزيد هذا الرأى قوة لأن لهؤلاء الناس شغفا خاصا بالتحدث عن ربانيين عرفوا الله ، وعرفوا الحق فى العصور الجاهلية قبل البعثة المحمدية ، والغرض من هذا التوضيح سافر ولو صح قولهم عن وجود من تسمى بهذا الاسم فى العصر الجاهلى . فرجال التعبد الاسلامى الذين عرفوا بكرهيا تهم المره لكل ما هو جاهلى لن يرضوا عن انتسابهن فى عباداتهم التوحيدية الخالصة الى جاهلى غير اسلامى . (١) .

٧ ـ وأما نسبتهم الى الصوفانه بجامع قلة الغناء فى كل فبعيد أيضا والا لغدت النسبة اليه صوفانى لا صوفى .

٨ ـ وأما قول من قال ان الكلمة ترجع نسبتها الى الصوف فقول تعوزه الحجة إذ أن لباس الصوف ليس مقصورا على الصوفيه وحدهم دون سواهم والا ظهر أن ذلك بمثابة اللقب قال " القشيرى " (وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠ .

قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه انه كاللقب فأما قول من قال "انه من الصوف ولهذا يقال تصوف اذ لبس الصوف كما يقال (تقمص) اذا لبس القميص فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف(١) .

على ان "القشيري" يرى ان البحث فى انتساب القوم الى شكل او هيئة بحث لاغناء فيه ذلك لأن هذه الطائفه فى نظره :

"اشهر من ان يحتاج الى تعيينهم الى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق وتكلم الناس فى التصوف . ما معناه ؟ وفى الصوف من هو؟ فكل عبر بما وقع له (٢)

غير ان فريق من العلماء لايرضى ماذهب اليه "القشيرى" ومن على شاكلته ومن هؤلاء العلماء الشيخ زكريا الانصارى شارح الرساله القشيرية .

---

(١) الرساله القشيريه جـ٢ ط دار الكتب الحديثة
(٢) المرجع القشيرية جـ٢ص٥٥١ .

وابن تيمية ، والطوسى صاحب "اللمع" الذى انتهى الـــى أن الأليق أن ينسبوا :

الى ظاهر البسه لان لبس الصوف دأب الانبياء عليهم السلام وشعـار الأولياء والاصفياء ويكثر فى ذلك الروايات والاخبار ، فلما أضفتهـم الى ظاهر اللبسه كان ذلك اسما مجملا عاما مخبرا عن جميع العلـوم والأعمال والاخلاق الشريفه المحموده ، ألا ترى أن الله تعالى ذكـر طائفه من خواص اصحاب (عيسى علية السلام) الى ظاهره اللبســه فقال عز وجل (واذ قال الحواريون) وكانوا يلبسون "البياض" فنسبهم الى ذلك ولم ينسبهم الى نوع من العلوم والاعمال والأحوال الـتى كانوا بها متمرسين فكذلك الصوفيه نسبوا الى ظاهرة اللباس ولـم ينسبوا الى نوع من أنواع العلوم الأخرى والأحوال التى هم بهـا متمرسون فكذلك الصوفيه عند ى() [1] .

---

(١) اللمع للطوسى ص٦٠ ، ٤١ ط ١ دار الكتب الحديثة .

ويرتضى ابن تيمية "ما ذهب اليه العلامه" الطوسى " فيقـــول :

"واسم الصوفيه هو نسبه الى لباس الصوف وهذا هوالصحيح[١]".

ثم يعدد كثيرا من الآراء ويفندها ويرفضها جميعا مستندا الى رفضه الى التحليل اللفظى والمعلومات التاريخية عن اهل الصفـــه فيذكر "ان اهل الصفه لم يكونوا اناسا بأعيانهم يلازمون الصفه ، بل كانوا يقلون تاره ، ويكثرون أخرى ، ويقيم الرجل بها زمنا " ثـــم ينتقل منها ، والذين ينزلون بها من جنس سائر المسلمين ليـــس لهم مزية فى علم ولا دين ، بل فيهم من ارتد عن الاسلام وقتلة النبى صلى اللـــه علية وسلم — فما المبرر اذن لان ينسب الصوفيه لأهل الصفه ؟ "[٢] .

والى مثل هذا الرأى يذهب فريق من العلماء المحدثين أمثـال المستشرق مرجليوث ، ود . زكى مبارك ، والشيخ مصطفى عبدالرازق ود . أحمد أمين ، ود . عبدالحليم محمود الذى يلاحظ أن هنـــاك علاقة وثيقة الصلة بين الصوف والصوفيه فلبسهم خشن ، وحياتهـــم خشنة فهنا تطابق ظاهر لبسهم ، وباطن أحوالهم .

---

(١) ، (٢) الفرقان بين اولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٦ ٣ جـ١ رياسة دار البحوث الاسلامية .

ونحن نرى ان الاولى عدم حسبهم فى قوالب محدده فانهم لاينسبون الى حال بعينه فهم ينتقلون بين الاحوال كأنهم طيور تأوى للى أعشاشها تمسى فيهادون ان تقر على قرار أو تثبت على حال وهذا ما ارتآه "السهروردى" صاحب (عوارف المعارف)..

حيث رأى ان وقفهم على صفه دون صفه هو انتقاص لهم ذلك لأن حالهم بين سير وطير ولتقلبهم فى الاحوال وارتقائهم من اعلى الى أعلى منه، لا يقيدهم وصف ولا يحبسهم نعت، وأبواب المزيد علماً وحالا عليهم مفتوحه، باطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم فلما تعذر تقيدهم بحال لتنوع وجدانهم نسبوا الى ظاهر اللبسه وكان ذلك أبين فى الاشارة اليهم وأدعى الى حصر وصفهم لأن الصوف كان غالبا على المتقدمين ومن سلفهم (١)

وأيضا لان لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ونسبتهم الى امر آخر من حال او مقام امر باطن، والحكم بالظاهر أوفق وأولى. فالقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب الى التواضع. (٢).

(١) عوارف المعارف السهروردى ٦١، ٦٢ جـ١ مكتبة القاهرة
(٢) عوارف المعارف السهروردى ٦١، ٦٢ جـ ١ مكتبة القاهرة

(ماهية التصـــــوف)

على ان الخلاف بين العلماء لم يقف عند هذا الحـــد فـي بحث اصل الكلمة واشتقاقها بل تجاوز ذلك . الى تحديد معـنى الصوف والتصوف فقد تعددت أقوالهم وتباينت ألفاظهم فى شأن هذا التحديد حتى ذكر صاحب (عوارف المعارف) انها زادت على ألف قول ونحن نذكر بعضها على سبيل المثال .

فقد سأل " الجنيد " عن التصوف ما هو ؟ فقال " هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به " .

* وسئل ابو محمد الحريرى عن التصوف فقال " الدخول فى كـــل خلق سَنى والخـــروج من كل خلق دنى

* قال ابو حمزه البغدادى : " علامة التصوف الصادق : أن يفتقـــر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهره وعلامة التصوف الكاذب : أن يستغنى بالدنيا بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ، ويشتهر بعد الخفاء " .

* وقال معروف الكرخى : التصوف " الاخذ بالحقائق واليأس مما فى ايدى الخلائق .

* وسئل القصاب عن التصوف ما هو ؟ قال : " أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام .

* وقال بشر بن الحارث : (الصوفى من صفا لله قلبه) [٢] .

* وقال فريدالدين العطار فى وصف احوال الصوفيه بانهم " قوم آثروا الله عز وجل على كل شئ فآثرهم الله عز وجل على كل شئ " ـ القشيرى ص ١٢٧ .

* وقال الجنيد " (التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع وعمل مع اتباع) .

القشيرى ص١٢٧ .

* وقال عبدالرحمن بن مجيب عن الصوفى فقال (لنفسه ذابح ولهواه فاضح ، ولعدوه جارح ، وللخلق ناصح ، دائم الوجل يحكم العمل ، ويبعد الامل ، ويسد الخلل ، ويغضى عن الزلل ، غدره بضاعه ، وخوفه صناعه ، وعيشه قناعه ، وبالحق عارف ، وعلى الباب عاكف ، عن الكل عازف) .

حلية الاولياء لابى نعيم ص ٢٣ جـ١

* وقال رويم : (التصوف مبنى على ثلاث خصال التمسك بالفقـــر والافتقار ، والتحقق بالبذل والايثاره وترك التعرض والاختيار

القشيرى ص١٢٧ ٠

* وقال ابو بكر الكتانى : (التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء)

القشيرى ص١٢٧ ٠

* قال ابو على الروذبارى (التصوف الاناخه على باب الحبيـــب وان طرد عنه)

القشيرى ص١٢٧ ٠

* قال ذى النون المصرى (الصوفى من لايتعبه طلبه ، ولا يزعجه سلب) ٠

* وقال سهل بن عبدالله التسترى (الصوفى من صفا من الكـــدر وأمتلأ من الفكر ، وانقطع الى الله من البشر ، واستـــوى عنده الذهب والمدر) ٠

* قال ابو بكر الكتاني (التصوف صفاء ومشاهدة) .

* قال ابو سعيد بن ابي الخير يقول (التصوف هو ان تتخلى عن كل ما في دماغك ، وتجود بكل ما في يدك ولا تجزع لشيء أصابك)

* وسئل الشبلي عن الصوفي فقال (من صفا قلبه فصفى ، وسلك طريق المصطفى ، ورمى الدنيا خلف القفا ، وأذاق الهوى طعم الجفا) .

حلية الاولياء ص٢٣ جـ١ .

* يقول ابو الحسن النوري (الصوفي لا يملك ولا يملك) كشف المحجوب الهجويري ص٣٧ جـ١ .

وله أيضا (الصوفيه قوم صفت قلوبهم من كدورات البشريه وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الاول والدرجه العليا مع الحق . فاذا تركوا كل ما سوى الحق صاروا لا مالكين ولا يملكون)

تذكرة الاولياء .

ورغم ان تلك التعريفات كثيرة ومتعدده الا انها لاتعطينا حدا جامعا مانعا ، وكل ماهناك أنها تعطى صوره عن الحالة التى يحس بها صاحب هذا التعريف أو ذاك حسب تقلبه في الاحوال ، ولذا فان سلامة المنهج تقتضى الاخذ بهذه التعريفات جميعا مع علمنا انها تعبر عن مراحل مختلفه ٠

ويمكن تصنيف تلك التعاريف الى ثلاث مجموعات :ـ

* المجموعه الأولى : تتحدث عن البدايات ٠
* المجموعه الثانية : تتحدث عن المجاهدات ٠
* المجموعة الثالثه : تتحدث عن المذاقات ٠

وكل مرحله منها ذات سمه تميزها عن الأخرى وتطبع السالك بطبعها الخاص ، ومن ثم يتحدث عما تفرضه طبيعة المرحله عليه من احساس ووجدان ٠

الفصل الاول

المراحل التى مر بها التصوف

* المراحل التى مر بها التصوف *

الذين عنوا بتتبع حركة التصوف الاسلامى منذ نشأته يدركون أنه تيار وجد فى البيئه الاسلامية نتيجة التآسى برسول الله صلى الله علية وسلم تأسيا كاملا فيما يحب أو يذر .

وقد نشأ عن تلك المحبه عزوفا عن الدنيا وامعانا فى الزهد فيها على اساس انها ممر الى الآخره التى هى دار المقام الحقيقى وعليه فقد نشأ التصوف فى أول أمره زاهدا بسيطا فى قلوب المسلمين ومحاولاتهم التقلل من المأكل والمشرب والملبس ، وعلى هذا الاساس فليس هناك فرق فى الكلمه بين الزهد والفقر ، والتصوف ولأن هذه الالفاظ مترادفات لشئ واحد هو الزهد فيما يقبل عليه الناس من متاع الحياة التى هى جوهر زائل ، وزخرف حائل وزينة ما تلبث أن تزورها الرياح حين تحيط بها من كل جانب فاذا هى قد تحولت الى ذرات اذهبتها الرياح الهوج وقد خلت الدنيا من كل بهجة كانت تلبسها وتزين بها ولم يبق الا التمسك بحقيقة النعيم الأخروى .

ولقد كان حب الندين غالبا على المسلمين فى صدر الاسلام

فلم يكونوا بحاجة الى صفات تميزهم أو جماعات تجمعهم ، اللهم الا الأرتباط بالنبى صلى الله علية وسلم الذى كان يدفعهم دفعا الى الرباط لحراسة هذا الدين من أن تشوبه شائبه أو يكدر صفوه مكدر ومن ثم اعرضوا عن زينة الحياة الدنيا فحلوا عن الدنيا مطى رحالهم ، وقطعوا منها حبال آمالهم ، زاهدين فيها منقطعين الى الله للعباده والذكر .

غير أن هؤلاء الذين أثروا الزهد فى الدنيا لم تكن تجمعهم اى رابطه بل كان لكل منهم وسيلته الخاصه من دعاء وتعبد وان التقى الكل فى النهاية على هدف واحد وهو رضا الله عز وجل بقصد الحصول على أعلى الدرجات تلك هى سمة المرحلة الاولى من مراحل التصوف .

* المرحلة الثانيــــة *

وظل الناس على هذا الحال الى أن طغى التيار المادى على الحياة فى أوائل القرن الثالث الهجرى وما تلاه من قرون ، واختلف الناس وتباينت مراتبهم فى درجة الاقبال على تلك المتع الماديـــة ولم يكن نصيب القلوب من ذلك الا الاغفال وعدم الاكترات بأعمـــال الباطن التى هى من صميم الدين بل هى الدين كله اذ بها يتـــم السيطره على الهواجس والخطرات والنوايا والضمائر والعـــــزوم والارادات وما الى ذلك من احوال النفس التى لو وكل أمر قيادتها الى الغرائز لافلتت من عقلها ولا أمكن السيطره عليها مصداقا لقول القائل :

* والنفس كالطفل ان تهمله شب
على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

وقول آخـــر :

* والنفس راغبة اذا رغبتهــــــا
واذا ترد الى قلـــيل تقنـــــع

وأما هذا الانحراف عن الجادة ، لم يجد الفقهاء بدا من العكوف على دراسة احكام الاعمال الظاهرة المتعلقة بالابدان كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج وما الى ذلك ، كما عكفوا على دراسة المسائل التى تعم بها البلوى .
كالحدود والزواج والعتق والبيوع والمواريث واصطلحوا على تسمية هذا النوع من البحوث ـ المتعلقة باجراء الاحكام على أفعال الابدان من حلال وحرام ووجوب واباحة ـ بعلم الفقه وأهل هذا الفن هم الفقهاء وأولوا الفتيا والاجتهاد فيما يعن للمجتمع الاسلامى اثناء مسيرته فى حركة التاريخ سعيا الى التقدم والاقتراب من الكمال .

كما اهتم فريق من العلماء بدراسة العقيدة فى قالب علمى عرفت أبحاثه باسم (علم الكلام) ولقد كان لهذا العلم بريق خاص استهوى كثيرا من القيادات بقصد استجلاء الحجج وتتبع النتائج فأقبل العلماء على علم الكلام يتفحصونه ويرتبون طرق المحاولات والمناظرات التى بعدت كثيرا عن المفاهيم المستقرة عند سلف الامة وأصحاب هذا المنحى يزعمون ان ابتداع تلك الطرق فى المناظرات والمناقضات انما هو للذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة .

* مآخذ الصوفية على الفقهاء والمتكلمين *

غير أن الصوفيه لم يجدوا فى هذين النوعين من الفكـــــر غذاء لأرواحهم فالفقهاء فى نظر الصوفيه اصحاب رسوم وطقـــوس وشعائر يهتمون بتتبعها من حيث الامتثال الظاهرى لما أملته الاحكام

وأما المتكلمون فـهـم أشد بعدا من الصوفيه حيث يهتمون بالمناقشات والمجادلات التى تؤدى الى قسوة القلب وحجبة عـن التدبر والأنس والقرب من الله (ولهذا السبب كان الصحابه رضى الله عنهم أبعد الناس عن هذا الاتجاه فى التفكير ، فقد علقـــوا هذا الدين مباشرة عن النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا يرفضـون الجدال فى الدين رفضا قاطعاً معتقدين ان كل ما أطلقه اللـــه على نفسه واجب الثبوت فلم يتكلفوا النص تأويلا ولا الصفات تعطيلا مع نفى التشبيه بخلقه ويعتقد جميعهم اجراء النص على ما ورد) (١)

وهذا اتجاه سلف الامه رضوان الله عليهم أجمعين فهـــذا مالك ابن أنس ٣ امام دار الهجره الذى يقول (الكلام فى الديـــن

---

(١) الخطط للمقريزى .

أكرهه ولم يزل اهل بلدنا يكرهونه . وينهون عنه ، ولا أحب الكلام الا فيما تحته عمل) .

* وقال أحمد بن حنبل (لايفلح صاحب كلام ابدا ولا نكاد نرى احدا نظر فى الكلام الا وفى قلبه دغل)[1] .

فهناك اذن خلاف جوهرى بين الفقهاء المتكلمين والصوفية وان اتسعت شقة الخلاف مع فريق المتكلمين حيث يمكن التقريب بدرجة او بأخرى بين كل من الفقهاء والمتصوفه فى المسلك .

فالفقهاء يجعلون تطبيق الأحكام طريقا للوصول الى الله فى حين أن اهل التصوف يرون الوقوف مع أدب الشريعه ظاهرا وباطنا هو الطريق الامثل فى الوصول الى الله .

لكن المسافه بين المتكلمين والصوفيه بعيدة الشقه حيث يسلك المتكلمون طريق الجدل وما يتشعب عنه من محاولات ومجادلات تؤدى فى النهاية الى جلب العثرات واغلاق القلوب .

---

(١) الفلسفة الاسلامية من تطور تحليل (محاضرات) د / محمد محمود شحاته .

* ونحن نعتبر ان التصوف هو رد فعل لعلمي الفقه والكلام ولقد سبقت الاشارة الى انه يمكن التقريب بين الفقه والتصوف وأما علم الكلام والتصوف فهناك فرق بعيد ومسافه شاسعه نظرا للاختلاف الجوهرى بينهما ، فالكلام من مسلكه الجدل والاعتماد على العقل اعتمادا كليا .

بينما لانجد ذلك عند المتصوفه فغاية القول فى علم الكلام انه علم يؤدى بصاحبه الى طرف عقلى يشحذ الهمم يفى بمقصود أصحابه دون ان يكون له مفهوم لدى الصوفية ، وكان لابد أن ينشأ فى مقابل هذين العلمين ـ الذين هما الفقه والكلام ـ علم آخر هو (علم الباطن) .

وهو ذلك العلم الذى يتعامل مع يذوقنا القلب من حلاوة الايمان أثناء محاولة السالك التسامى والارتقاء الى العلم العلوى غير المنظور الذى هو وراء الطبيعة المادية وهم يقررون ان ذلك الترقى لايتم الا بتخليص النفس من كدوره المادة وعلائق البدن وشواغل الحس وذلك برفضها تألفه النفس فى العادة من السلطان والجاه والمال والابتعاد عن الخلق فى الخلوه ومجافاة شهوتى البطن والفرج ومفارقة الرسوم والعادات كراحة النوم والانس باللذات وما الى ذلك من الحياة المادية الدنيويه الى أن يصبح

ذلك له خلقا جبليا يستغنى به عن دنيا الناس ، وأولئك المشتغلون بتصفية النفس يعرفون بالزهاد والعباد والصوفية

وقد كان طابعهم الذى يتميزون به عن غيرهم من التيارات الموجوده على الساحه الفكرية اذ ذاك هو عنايتهم بتهذيب النفس والسلوك وقد غلب عليهم الطابع الأخلاقى فى العلم والعمل وأصبح التصوف علما للأخلاق الدينية متميزا عما سواه من العلوم الأخرى ودفعهم ذلك الى التعمق فى دراسة احوال النفس الانسانية والمعرفه الذوقية والكلام عن الذات الالهية من حيث تبادل الصله بينها وبين الانسان ومع حركة التاريخ تنوعت الكتابه فى موضوعات جديده لم تكن مطروقه فى المرحلة السابقه ومنها :ــ

أ ــ المجاهدات :

وما يحصل عنها من الاذواق والمواجيد ومحاسبة النفس عن الاعمال .

ب ــ الكشف والحقائق المدركه من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش ، والكرسى ، والملائكة ، والوحى ، والنبوه والروح وحقائق كل موجود غائب او شاهد وترتيب الاكوان فى صدورها عن موجدها وتكوينها .

جـ — التصرفات فى العالم والاكوان بأنواع الكرامات وخوارق العادات

د — صدور الالفاظ الموهمه الظاهره والتى تعرف بالشطحات وهى العبارات التى تشكل ظواهرها ، والناس بالنسبه لها بين منكر ومتأول .

أ — المجاهدات وما يحصل عنها من الاذواق والمواجيد ومحاسبة النفس على الاعمال . ولابد للسالك المريد أن يترقى فى هذه التجارب التى تعبر عنها لغة هذا الفن بالمقامات أو المنازل والاحوال (والمقام بفتح الميم ضمها ما يتحقق به المزيد من الصفات المكتسبه بالرياضه والعباده ، كمقام الخوف من الله الذى يحصل بترك الكبائر ، فالصغائر فالمكروهات ، فالشبه ، فالتوسع فى الحلال الى أن ينتهى الى ترك كل مايشغل عن الله والحال معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب كالطرب والحزن والشوق والهيبه فالاحوال مواهب والمقامات مكاسب بمواهب لانها انما تنال بالكسب مع الموهبه ، والعبد بالاحوال يترقى الى المقامات ولا يلوح من مقام أعلى من مقامه الا وقد قرب ترقية وليس للمريد أن يتشوق الى مقام فوق مقامه ما لم يستوف احكام ذلك المقام وأحواله ومنهم من يقول الاحوال من نتائج المقامات

والمقامات نتائج الاعمال فكل من كان اصلح عملا كان أعلى مقاما وكل من كان أعلى مقاما كان أعظم حالا) [1] .

ب ـ الكلام فى الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب وهذا الكشف لتلك الحقائق التى هى من عالم الغيب لابد فيه من معاناة قبل أن يصل السالك اليه ، حيث يتعين القيام بتصفية النفس بتخلصها من شواغل الحس حتى يصبح البدن ليس فيه الا الحركة التى ترمز الى الحياة المادية بينما هو قد فارق تلك الحياة الى حياة يحياها فى داخله تتركز على اشغال النفس بالله وارغامها على عدم التفكير فيما سواه ولا يحقق ذلك الا بعد مرور السالك بمقام التقوى ثم الاستقامه والاستمرار فى قطع القلب عن العلائق الدنيويه ثم يكون الكشف بعد ذلك الطريق الطويل ، فاذا وصل الى ذلك تجلى له جلال الحضرة وتجلى له الحق وعظم الفرح واللذه وطار به السرور وظهر من لطائف الله ما يقصر عنه وصف الواصفين .

جـ ـ التصرفات فى العوالم والاكوان بأنواع الكرامات فقد قالوا أن من استغرقته العباده اجرى الله على لسانه ويده من الكرامه ما هو

---

(١) الاسلام والتصوف بقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق ص٤ جـ١ الشعب

خارق للعادة ، وقد استندوا فى ذلك الى القرآن الكريم والأحاديث القدسية وما وقع لبعض الصحابة .

فأما القرآن فقوله تعالى " وما تشاءون الا أن يشاء الله " فقد ربط الصوفية قلوب الأولياء بمشيئة الله فاذا شاء شيئا كانت قلوبهم تابعة لمشيئته .

وأما الحديث القدسى فقولة تعالى فى الحديث الذى جرى على لسان النبى صلى الله علية وسلم (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما زال عبدى يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته... كنت سمعه الذى يسمع به ... وعينه التى يبصر بها ويداه التى يبطش بها .

واذا كان الذى يعادى الولىّ الذى تولى الله بالعبادة وتولاه بالمحبه والرعاية فقد وصل الولى الى مرحلة من القرب يشعر بلذة لانستطيع نحن أن نعبر عنها كما يعبر عنها ذلك الولىّ وعند هذا الحال يحدث له من أنواع الكرامات ماهو خارق للعاده كى يظهر فضل الله عليه على أن هذه الكرامات يجب الا تكون مقصودا للسالك بل كأنها شيئا عاديا لايتعلق به وقد وقع ذلك للصحابه

والتابعين "وبالجملة فالقول بجواز ظهورها على الاولياء واجب وعليه جمهور اهل المعرفة ولكثرة ما تواتر بأجناسها الاخبار والحكايات صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء فى الجملة قويا تنفى عنها الشكوك... من دلائل هذه الجملة نص القرآن فى قصة صاحب سليمان عليه السلام حيث قال - أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك - ولم يكن نبيا والاثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عنه صحيح أنه قال ياسارية الجبل فى حال خطبته يوم الجمعة وتبليغ صوت عمر الى سارية فى ذلك الوقت حتى تحرزوا من مكامن العدو من الجبل فى تلك الساعة " (١)

ومن شروط الكرامة واجب سترها واخفاؤها لأنها جانب من السر الذى يجب عدم البوح به والا يدعها أو يلحظها أو يسكن اليها لأن ذلك يخرجه من ارادة الله الى ارادته ويخرج الكرامة عن أن تكون فعلا خالصا لله .

---

(١) الرسالة القشيرية ص٦٦٣ تحقيق د / عبد الحليم محمود ود / محمود الشريف ج١ ه دار الكتب الحديثة .

د - (ألفاظ موهمه الظاهر صدرت من بعض أئمة القـــــوم يعبرون عنها فى اصطلاحهم بالشطحات)[1] .

وهى عبارة تطلق عادة على ما يحس به الصوفى من وجـــد فاض بقوة وغلب على صاحبه حتى أصبح غير مالك لحاله فينطـــق بألفاظ ظاهرها الكفر مثل قول أبى يزيد البسطامى المتوفـــى ٢٦١ هـ أنه قال :

رفعنى مره فأقامنى بين يديه وقال ياأبا يزيد ان خلقـــى يحبون أن يروك فقلت : زينى بوحدانيتك ، وألبسنى أنانيتـــك وارفعنى الى أحديتك حتى اذا رآنى خلقك قالوا رأيناك فتكـــون أنت ولا أكون أنا هناك " ونحوه مما قال به الحلاج فى شطحات كثيرة من هذا اللون والحق أن القوم هنا مابين منكر ومتأول .

فى طليعة الذين انكروا على الصوفية مقالتهم ابن الجـوزى الذى قال : ان الصوفية مأخوذون بما يقولون وان ادعائهـــم الغيبه والمحو والسكر والفناء وما الى ذلك انما هو نوع من مصائد الشيطان الذى أوقعهم فى شبكه حيث وسوس لهم بما قالوا ولقد كفروا

---

(١) شرح الالفاظ التى تداولها الصوفية مخطوط مكتبة أبى العباس المرسى - بالاسكندرية .

بهذه المقولات بعد اسلامهم [1] .

وأما المتأولون فقد اعتذروا عما صدر من الصوفية من أقوال بأنهم مجبرون على ما قالوا نظرا لأن مايجده الصوفي هو شعور فياض يجعله مفارقا للجسد يغفلا يشعر الا بالحضرة الالهيه تهتف في نفسه .

وعلى هذا الاساس دفع الجنيد بن محمد شيخ الطائفة ت (٢٩٨) عن أبي يزيد البسطامي (ت ٢٦١) (وشطحاته سبحاني سبحاني أنا ربكم الأعلى حين جاءه من ينكر عليه ذلك اذ رد قائلا : ان الرجل مستهلك في شهود الجلال فنطق بما استهلكه لذهوله في الحق عن رؤيته اياه ، فلم يشهد الا الحق تعالى فنعته فنطق به ...) [1] .

ويقرب من هذا ايضا ما قاله ابن تيمية بعض تفاصيل أحوال الواردات على القلب وبيان مواقف القوم من الحكم على تلك المواجيد والاذواق ، والاحوال وغير ذلك مما لامدفع للعبد

---

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزي .

فيها معنى أنه ليس للعبد اختيار فيما يحدث له نتيجة لهذه الاذواق وتلك الاحوال • فان هذا يتوقف على السبب الدافع الى النطق بتلك الالفاظ وتلك التصرفات التى ترتبت على غياب العقل فان صاحبها معذور ويقرر أن الذى عليه جمهور العلماء •

(ان الواحد من هؤلاء اذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه وان كان حال الثابت أكمل منه) (١) •

وأما حجة الاسلام أبى حامد الغزالى فيفرق بين نوعين من الشطحات نوع يصدر فى عبارات كثيرة لها رنين خاص دون أن يكون وراءها مفاهيم محددة وأحيانا لايفهمها قائلها لما يعقله من تخبط وتشويش وتارة يكون القائل فاهما للمعانى المرادة من الكلمات التى صدرت عنه دون أن يكون قادرا على ايصال المعنى وابرازه للسامعين ويقرر أنه لافائدة لهذا الجنس من الكلام الا انه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الاذهان أو يحمل على أن يفهم منها معانى ماأريدت بها ويكون كل واحد على مقتضى هواه وطبعه) (٢) •

أما النوع الثانى نوع جليل الخطر لانه يتصل اتصالا مباشرا بالحديث عن الحق سبحانه وتعالى حيث يدعى السالك رفع الانية بينه وبين المعبود سبحانه وتعالى ومن ثم فيسهل على العاشق أن يدعى الاتحاد بينه وبين الله عز وجل وارتفاع الحجاب وادعاء

---

(١) انظر مجلة عالم الفكر التصوف ايجابياته وسلبياته ص ٣٦٣ العدد الثانى ــ المجلد السادس سنه ١٩٧٥
د / احمد محمود صبحى •

المشاهدة وما يلبس ذلك من تغيرات ليست معقولة .

وينهجون على مناهج الحسين بن منصور الحلاج في مقالته المتداولة على ألسنه تلاميذة مثل قولة (أنا الحق) وقول أبي يزيد البسطامي سبحاني سبحاني ويقرر الامام الغزالي أن هذا اللون من الكلام (عظيم ضررة في العوام) وأن قتل من يدعي ذلك أفضل من أحياء عشره . وذلك لان مثل هذة الدعاوى من هذا الكلام يستلذة الطبع اذ فيه البطالة من الاعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والاحوال فلا تعجز الاغبياء عن دعوى ذلك لانفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا هذا انكار مصدرة العلم والجدل والعلم حجاب والجدل عمل النفس وهذا الحديث لا يلوح من الباطن . . بمكاشفة نور الحق) (١)

وهذا الرأى الذى يراه الامام الغزالى فى شطحات الحلاج لا يرى مثلة فى الشطحات التى صدرت عن ابى يزيد حيث ينفى عن الرجل ما نسب اليه على فرض نسبة هذا الكلام اليه فهو حكاية عن الله عز وجل وليس من كلام ابى يزيد على نحو ما فعلة الجنيد شيخ الطائفة فى الدفاع عن الرجل .

---

(١) الصوفيه والفقراء لابن تيمية ص ١٤ مطبعة المدنى

(٢) احياء علوم الدين للامام الغزالى ص ٦١ جـ١ ط الشعب

يقول الامام الغزالي : (وأما أبو يزيد البسطامـــى رحمه الله فلا يصح عنه مايحكى وأن سمع ذلك فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه كما لو سمع وهو يقول انني أنا لا اله الا انا فاعبدني ماكان ينبغي أن يفهم ذلـــك الا على سبيل الحكايـــة) (١) .

أما العلامة ابن خلدون فيقرر أن ثمة فرق بين حالتيـــن

الحالة الاولى : تعمد الشطح ولا نزاع في أن هذا كفر والحاد .

الحالة الثانية : حال صدوره أثناء الغيبة عن الحس (أن الانصاف في شأن القوم انهم أهل غيبة عـــن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنهـــا بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطـــب والمجبور معذور ، فمن علم منهم فضلة والقداوة حمل على القصد الجميل ...

ومن لم يعلم فضلة ولا اشتهر فهو مؤاخذ بمـــا صدر عنه ذلك .

اذا لم يتبق لنا مايحملنا على تأويل كلامه وأما من يتكلم بمثلهـــا وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ ايضــــا .

---

(١) ، (٢) نفس المصدر صـــ ٦١

ولهذا افتى الفقهاء ، وأكابر الصوفية بقتل الحلاج لانه تكلم فى حضور وهو مالك الحالة) (١)

وأبرز مايميز هذة المرحلة هو بداية انتقال الفكر الصوفى من العبادة المجردة الى تدوين القواعد والنظريات التى تحوى حقائق علم القلوب وشرح مصطلحاته لان للقلوب لغة خاصة لاتضبطها ألفاظ اللغه إذ أن الأوضاع اللغوية انما هى لمعانى متعارف عليها .

والصوفى اثناء تجربته ومعاناته لايستخدم هذا النوع من الالفاظ انما يعبر عن احواله الخاصة بأى وسيلة يراها معبرة عن ذاته كاشفة عن حقيقة وجدة . ومن ثم فان لهم اصطلاحاتهم الخاصه التى لا يشركهم فيها غيرهم .لهذا تنوعت تسمية هذا العلم فسمى علم القلوب، وعلم الاسرار ، وعلم المعارف ، وعلم الباطن ، وعلم الاحوال ، والمقامات ، وعلم السلوك ، وعلم الطريقة ،وعلم المكاشفة .

هذا فيما يتعلق بالتدوين وكما تتميز هذة المرحلة بشيئ جديد على الفكر الصوفى ذلك هو ظهور البواكير الاولى للتصوف الفلسفى نتيجة لاحتكاك الثقافات التى كانت ترد على المسلمين من مختلف مناحى الفكر فظهر الحديث عن فناء العبد فى الرب على يد البسطامى ت ٢٦١ هـ وقد عبر عن فنائة فى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١١٣، ١١١٤ جـ ٣ تحقيق على عبد الواحد وافى ط نهضة مصر .

ربه واتحاده به بعبارات متطرفة أدت الى ثورة الفقهاء عليه كما كان هذا لتصوف الحلاج ٢٤٤ هـ الذى تأثر فيه بمصادر اجنبية عن الاسلام وانتهى الامر باعدامة لمقالته المشهورة (أنا الحق) والتى أعلن فيها انه متحد بالذات الالهية كما يرجع كذلك الى كثرة مريدية واحبائة ممن تأثروا به واعتقدوا فى قدرته على أحياء الموتى وغير ذلك من الامور التى خيف منها على عقيدة هؤلاء المريدين والعوام بالاضافة الى ماكان بينه وبين القرامطة من صلات سرية وهم اعداء للخلافة .

هذة العوامل مجتمعة أدت الى قتله درءا للفتنة كما تمتاز هذة المرحلة بدعوة بعض شيوخ التصوف كالجنيد والسرى السقطى والخزار وغيرهم بجمع المريدين حولهم وتربيتهم فنشأت البدايات الاولى للطرق الصوفيه وتعتبر هذة الطرق بمثابة المدارس التى تلقت فيه الصوفية آداب الطريق علما وعملا واستغرقت هذة المرحلة القرنين الثالث والرابع الهجريين .

— المرحلة الثالثه : وتقع هذة المرحلة فى القرن الخامس الهجرى وقد حمل لواءها الامام الغزالى الذى رد التصوف الاسلامى الى المنبعين الاصليين وهما كتاب الله وسنه رسولة صلى الله عليه وسلم ومن ثم رفض الاتجاة الفلسفى الذى ظهر على يد البسطامى والحلاج ووضع نظريته فى المعرفة التى تقوم على التشكيك .

فيما ذهب اليه الفلاسفة وغيرهم فى تحصيل المعرفة منتهيا الى أن طريق الصوفية فى المعرفة هو أفضل الطرق جميعا وتلك المعرفة لاتتأتى الا عندما يكون العبد قد وصل الى درجة من الشفافيه وعندئذ يكون مستعدا لان يقذف الله النور فى قلبة ولقد أثنى الغزالى على الصوفية ثناء عظيما وامتدح مسيرتهم بعد أن عكف على دراستهم علما وعملا واقتداء وتجردا ومجاهدة نفس ، حتى انتهى الى أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وان سيرتهم احسن السير وطريقتهم اصوب الطرق واخلاقهم أزكى الاخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا من سيرهم واخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا .

فان جميع حركاتهم وسلوكهم وظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به (١) .

وعليه فان المعرفة اليقينية عندة لاتتمثل فى معرفة المتكلمين ، والفلاسفة بل المعرفة اليقينية هى معرفة الصوفية التى تقوم على أساس من التذوق الروحى والكشف الالهى .

وعلى أيه حال فان المعرفة الصوفية المباشرة التى يشعر

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى تحقيق د عبد الحليم محمود دار الكتب الحديثة صـ ١٤٥ .

اليها الغزالى فى المنقذ وفى أحياء علوم الدين وفى الرسالة اللدنيه تعتبر فى نظرة اسمى درجات المعرفة على الاطــلاق وهى وحدها التى تصلح كأداة لمعرفة العالم العقلى الأعلى (١) وبذلك يكون الغزالى قد أقام نوعا من التصوف السنى متمشيا مع أهل السنة والجماعة ويخالف تصوف الحلاج والبسطامــى فى الطابـع .

ثم أخذ نفوذ التصوف السنى يزداد فى العالم الاسلامى مع بداية القرن السادس الهجرى الذى تأثر مفكروه بــآراء الغزالى وبدأ بعض مشايخ التصوف فى هذه الحقبه يؤسسون طرقا لنشر هذا الفكر ومن هؤلاء الشيوخ / السيد احمد الرفاعى المتوفى سنه ٥٧٠ هـ والسيد / عبد القادر الجيلانى المتوفى سنه ٥٦١ هـ ـ وابو الحسن الشاذلى سنه ٦٥٦ هـ وتلميذة ابو العباس المرسى المتوفى سنه ٦٨٦ هـ وتلميذهما ابن عطاء الله السكندرى المتوفى سنه ٧٠٩ هـ ويعتبر هذا التصــوف امتداد لتصوف الغزالى السنى .والى جانب هذا التصوف السنى فى القرنين السادس والسابع فقد وجد التصوف الممزوج بالفلسفة اليونانية لاسيما الافلاطونية على يد بعض شيوخ التصــوف كالسهر وردى المقتول صاحب (حكمة الأشراق) المتوفــى سنه ٥٤٩ هـ وعمر بن الفارض المتوفى سنه ٦٣٢ هـ ومحيــى الدين بن عربى المتوفى سنه ٦٣٨ وعبد الحق بن سبعيــن

---

(١) قراءات فى الفلسفة / على النشار ومحمد على ابو ريان صــ ٧٠٦ ، ط الاولى سنه ١٩٦٧ الدار القوميــة للطباعـــة .

المتوفى سنه ٦٦٩ هـ (١) .

والواقع انهم قد قدموا لنا نظريات عميقة فى النفس والاخلاق والمعرفة والوجود كان لها تأثيرها على من نجا نحوهم من الصوفية المتأخرين وبظهور هؤلاء الصوفية المتفلسفين اصبح لدى التصوف الاسلامى تياران :

* احدهما سنى يمثله رجال التصوف الذين ذكرهم القشيرى فى الرسالة وهم صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين ومن بعدهم الامام الغزالى ومن تبعه من شيوخ الطرق الكبار وكان الطابع الغالب على هؤلاء هو الطابع الخلقى العملى كما سبق أن أشرنا .

* والتيار الثانى : هو التيار الفلسفى الذى نادى اصحابه بنظرية وحدة الوجود التى تعنى اسقاط الاثنينية والكثرة فى الوجود العينى ويمثل هذا التيار محى الدين بن عربى الذى يعتبر نموذجا من النماذج القادرة على تصوير مدى التزاوج بين الفسلفة والتصوف . خلال القرنين السادس والسابع الهجرى فهو وأن كان صاحب ذوق يفعل مايفعله اصحاب التصوف السنى من رياضيات ومجاهدات بقصد انكشاف الحقيقة الا أنه

(١) محاضرات فى التصوف الاسلامى د . ابو الوفا التفتازانى ص ١٣

يمزج ذلك بالفلسفة والمنازع الميتافيزقيه (فهو صاحب مذهب في الوحدة وفي الوجود وفي صدور الموجودات عن موجدها يرى أن الحقيقة الوجوديه الحقه انما هي للذات الالهية التي تفيض على الوجود من عين وجودها وتشع الحياة والحركة من معين وجودها وليس ثمة وجود حقيقي الا للواحد الاحد الحق وأما سوى الله فوجودة وهمي ولا يحقق فيه الوجود الا بمقدار ما يفيض عليه من عين الوجود ومعين الجود) (١) .

ومن هنا شهد القرن السابع الهجري وما تلاه من قرون سلسلة من الخصومة الحادة بين الفقهاء ومتفلسفي الصوفية ولعل أبرز خصومهم الصوفيه هو الفقيه الحنبلي تقي الدين بن تيمية المتوفي سنه ٧٢٧ هـ فقد ثار ثورة عنيفة على تعاليم متفلسفي الصوفية لما أدخلوه على الاسلام من مصادر اجنبية عنه وكتب في ذلك عدة رسائل نقد فيها مذاهبهم وكشف عن تعارضها مع المعقول والمنقول ومن هذة الرسائل ما كتبة الى النصر المنبجي ورفضة فيه مذاهب الصوفية في الحلول والاتحاد ووحدة الوجود بصفة خاصة (٢) .

وقد بين في هذة الرسائل انه لابد من ضروره الاقتداء بالطريقة النبوية وانها هي الاصل والاساس لانه لا عصمة الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا في ذلك [من بنى الارادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الاعمال وفروعها من الاحوال

---

(١) الصوفية والحب الالهي ص ٨٣ وما بعدها

القلبية والاعمال البدنية على الايمان والسنة والهدى الـذى كان علية محمد صلى الله عليه وسلم واصحابة فقد اصاب طريـق النبوة) (٢) .

ومنهج ابن تيمية في نقد متفلسفى الصوفية قائم على رفض كل مايخالف الكتاب والسنة واقوال الصحابة واقضيتهم وفتاويهم وكل ماآثر عنهم من آراء وبهذه النظرية استطاع بن تيميـــة ان ينقى التصوف مما دخل عليه من الثقافات الاجنبية التـــى تصيب أى علم من العلوم أثناء مسيرته واتجاهه نحو الكمال .

الفصل الثانى

الإسلام كمصدر للتصوف

الاسلام كمصدر للتصوف

كثرت الكتابات حول هذة النقطة بالذات هل الاسلام هو المصدر الرئيسى الذى استخدم منه الصوفيه الهاماتهم واشراقاتهم ورياضاتهم واذواقهم ومواجدهم أم انه مصدر ضمن مجموعة من المصادر الاجنبية الكثيرة التى أثرت فيه كاليونانية والمسيحية والهندية

فريق من الكتاب المسلمين وقع فى أسر الشرك الخداعى الذى نصبة المستشرقون لتشكك المسلمين فى ثقافاتهم وارجاعها الى كل ماهو اجنبى .

وجار المستشرقون فى اعتبارهم أن التصوف الاسلامى ليس اصيلا فى نشأته ولا فى منهجة بل هو متأثر بمختلف الثقافات الاجنبية التى ألمنخا اليها ومن ثم اخذ هذا الفريق يقوم بعمليه موازنات ومقارنات وتحليلات لموضوعات يرى أن التصوف الاسلامى قد تأثر فيها بثقافات دخيلة على الاسلام وهنا يجب أن نلفت النظر الى مافى هذا الخبث الاستشراقى من كيد لهذا الدين الذى بقى على مدى التاريخ شامخ لم تستطع هذة النظرات التى غالبا ما تجانب الحيدة العلمية فى طريقة البحث واستخلاصها للنتائج على حين أن البحث العلمى الصحيح يفرض على الباحث أن يقوم بتحليل الظاهرة موضوع البحث من حيث البيئة التى نشأت فيها والتفاعل بينها وبين الجماعة التى ولدت ونمت فيها هذة الظاهرة ثم يقوم بمراقبة شعور الجماعة

نحو تلك الظاهرة والموقف التي تتخذه منهـــا .

وإذ ذاك يدرك المدى الذى استخدمت منه الجماعـــة مقوماتها وشخصياتها مستغنية بذلك عما سواها على أنه يجـب أن نلاحظ أن الاسلام قد استضاف الثقافات الاجنبية وفتح لهـا صدرة على الرحب بلا أسوار شاهقة تمنعها من الاحتكاك بالثقافة الاسلامية او قيود تعوق نشاط تلك الثقافة ... وكل مافعلة الاسلام انه اوجب على القيادات المنتمية اليه فرز الغث من الثمين

ومن هذا المنطق عرف المسلمون فيما عرفوا ثقافـــــة اليونان وغيرهم من الامم دون خوف كما قلنـــا .

ولاعجب فالقرآن هو الذى أرسى تلك القاعدة التـــى تقول لايصح الا الصحيح .

ذلك كله يتم فى حراسة النص القرآنى الذى يقـــول "فاما الزبد فيذهب جفاءا وأما ماينفع الناس فيمكث فـى الارض (١)،(٢) .

على هذا الاساس نشأ التصوف كأى علم من العلوم لـــه مقوماته الاسلامية الاصلية التى تقوم على الانقطاع الى الله فـى العبادة بالخلوة والذكر والزهد فيما يقبل عليه الناس من لـــذة ومتاع هكذا بدأ التصوف نموه فى ظلال الكتاب والسنة وظل علـى

---

(١) سورة الرعد الايه ١٧
(٢) الفلسفة الاسلامية من منظور تحليلى للمولف صـ ١٢

هذا الحال نقيا من الشوائب التى تكدر صفوه، ثم دخلت فى الاسلام أمم أو شعوب ذو ثقافات متباينة، وكان من أولئك و هؤلاء افراد كانت نفوسهم منطوية على أغراض اخرى وكان من الطبيعى أن تحتك تلك الثقافات بالاسلام فتسرب الى التصوف بعض افكار غريبة عن الاسلام فى عصور متأخرة (حيث مزج التصوف بعلوم اليونان وبالحكمة المشرقية القديمة وهى تراث الهند وفارس وبالديانات الاخرى كالمسيحية، ومزجوا التصوف بهذة العناصر المتباينة فى فلسفة ظاهرها اسلامى وباطنها غير اسلامى . (٣) .

وشأن التصوف شأن أى علم من العلوم ينشأ ثم ينمو ثم يضاف اليه اضافات تقل أو تكثر فليس معنى هذا أن تقوم معارك طاحنة بين المفكرين المسلمين منهم من يرفض التصوف كلية ومنهم من يقبلة كلية فتكون بذلك قد حققنا هدف بعض المستشرقين الذين يريدون توجية الضربة القاصمة لهذا الدين بسلبة الاستقلال الذاتى فى أى ناحية من نواحى الفكر يقول المرحوم الدكتور/ محمد اقبال فى كتابة (تطور الفلسفة الميتافيزيقية) : (ليس من الصواب أن نرجع كل ظاهرة فى بيئه ما الى عوامل خارجه عنها فنهمل بذلك العوامل الداخليه فانه لافكرة من الافكار ذات قيمة يكون لها سلطان على نفس

الناس الا اذا كانت تمت اليهم بصلة، فاذا جاء عامل خارجي أيقظها ولكنه لا يخلقها خلقا . وعندما بحث المستشرقون في أصل التصوف ذهبوا الى أن مردة الى هذا العامل الخارجي أو ذاك ونسوا أن أيه ظاهرة عقلية أو تطورة عقلى فى أمة لا يكون لهما معنى ولا يفهمان الا فى ضوء الظروف العقلية السياسية والدينية والاجتماعية التى عاشت فيها هذة الامة قبل ظهور تلك الظاهرة) (١) . وهذا الفهم الذى فهمناة من أن التصوف نشأ فى حضن البيئة الاسلامية ربيبا لهما .

مبرئنا من الفكر الدخيل يمهد نا فيه ابن تيمية الذى عرف بمهجمته الشديدة للتصوف فقد سلم بأن التصوف نشأ نشأة اسلامية حيث يقول (ان مشايخ التصوف وغيرهم يأمرون اهل القلوب ارباب الزهد والعبادة والمعرفة والمكاشفة بلزم الكتاب والسنة قال الجنيد بن محمد (علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم بعلمنا وقال الشيخ ابو سليمان الدرانى (وانه لتمر بقلبى النكته من نكت القوم فلا اقبلها الا شاهدين الكتاب والسنة) وقال ابو عثمان النيسابورى (ومن أمر السنة على نفسة قولا وفعلا نطق الحكمة ومن آمر الهوى على نفسة نطق بالبدعة فان الله يقول (وان تطيعوة تهتدوا) ومثل هذا كثير من كلام المشايخ والعارفين وائمة الهدى

---

(١) نقلا عن ابى العلا عفيفى من كتاب التصوف الثورة الروحية فى الاسلام ص ٥٥

وافضل اولياء الله عندهم اكملهم متابعة للانبيـــــاء) (١)

ويؤكد ابن تيمية انتماء الزهاد الاوائل رضوان اللـــــه عليهم ــ الى المعين الاول الذى نشئو فيه وهو الاسلام فيقرر (ان الشيوخ الاكابر الذين ذكرهم ابو عبد الرحمن السلمى فى طبقات الصوفية وابو القاسم القشيرى فى الرسالة كانوا على مذهب اهل السنة والجماعة ومذهب اهل الحديث كالفضيـــــل بن عياض والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستـــرى وعمرو بن عثمان المكى وابو عبد الله بن خفيف الشيرازى وغيرهم وكلامهم موجود فى السنه (٢) .

سنبين فيما يلى كيف وجد الصوفية فى حياة الرســـــول صلى الله عليه وسلم وفيما اوحى اليه من كتب وسنة معينا فيضا يستمدون منه اذواقهم ومواجيدهم مستغنيين به عما سواء من مذاهب وتيارات اجنبيـــــة .

---

(١) الرد على المنطقتين لابن تيمية ص ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦

(٢) الصفدية لابن تيمية صـــــ ٢٦٧ .

أولا : حياة النبى صلى الله عليه وسلـــــم

يمكننا التمييز بين فترتين من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم :
* الفترة الاولى : فى حياته قبل البعثة والثانيه فى حياتـــــه
بعدها وفى كل فترة من هاتين الفترتين وجد الصوفية
لانفسهم مصدر غنيا فيما استمدوة من صنوف العلـــــم
وضروب العمـــل .
حياته قبـــل البعثـــــة :

لاشك فى أن تحنف الرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وحيدا
منعزلا من الاهل والولد مفكرا فى الحقيقة التى توجه الكون فى
حركاته وسكناته . وما اضفى عليه هذا التفكير من هدوء البـــال
وراحة اليقين وبر السكنية . فاذا نظرنا فى ذلك ووازنا بين
هذا الحال وبين احوال الزهاد والعباد الذين ظهروا بعــد
وعرفوا باسم الصوفيـــة .
استطعنا أن نبين فى يسر الصلة بين حياة النبى صلى الله عليه وسلم
وبين حياة الصوفية واستطعنا ايضا أن نرد طريقة هؤلاء القوم
بما تشتمل عليه من رياضات ومجاهدات ومن أذواق ومواجيـــد
وما تنتهى .

اليه من كشف الحقائق ومعرفة للحقائق الى مصدرها الاول فى هذة الحياة الروحية الخالصة التى يحياها محمد صلى الله عليه وسلم (١) والتى تجرد فيها من مؤثرات البيئة والتقاليد الاجتماعية فقد كان عزوفا عنها زاهدا فيها معتقدا ان تلك الطقوس والرسوم هـــى عوائق تمنع من الوصول الى الحقيقة ٠

هذا التجرد عن كل صفات البيئة وعوائدها قد كان سبيلة الى كشف حقائق التوحيد التى اتته بعد الايمان فى تطهير نفسية حتى اصبحت مستعدة لتلقى الاجابة على تلك التساؤلات الحائرة التى كانت تتردد فى اعمال نفسه اين الحق من ذلك كلة ؟ بل أين الحقيقة فيما يفعل المجتمع المكى من عبادة الوثن وتعظيـم الصنم واقامة تلك الطقوس من حولها ٠ وان ذلك وهم يجب أن يكشف سرة وما السبيل الى ذلك الاعزلته وتحنفة فى غار حراء شهر من كل عام تتجلى فيه النفس وتنفسح حتى تطل باشراقها علــى كون الله العريض حين تفقد السماء ضوء ما بعد الغروب ٠

والتأمل فى ساعة الصبــح حين ينسكب على الظلمة ضــوء ينسخها وما يتلو ذلك من شمس ذات تأثير كبير على نفسية الانسان والحيوان ففى هذا كلة كان يبحث محمد (ص) عن الحقيقة العليا التى وراء حركات هذا الكـــــون ٠

---

(١) الحياة الروحية فى الاسلام محمد مصطفى حلمى ٠

ولقد بذل الرسول (ص) جهدا كبيرا من أجل أن يجاوز مدراكات الحس ليصل الى حالة عليا من الصفاء الذهنى والنفسى تأتى فيه الحقيقة من بعد اجابة عما يسأل عن الكون واسرارة وخالقة ومدبرة (اقرا باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) (١)

وما من شك فى أن الصوفية قد وجدوا فى عزلة النبى (ص) معينا فياضا استندوا اليه فيما اخضعوا انفسهم له من ضروب المجاهدات والرياضيات والاذواق وقد أشار الى ذلك حجة الاسلام الغزالى اذ قال :ــ

(الفائدة الاولى للعزلة التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق والاشتغال باستكشاف اسرار الله تعالى فى أمر الدنيا والاخرة وملكوت السماء والارض فان ذلك يستدعى فراغا ولافراغ مع المخالطة فالعزلة وسيلة اليه وهى اولى بهم ولذلك كان (ص) فى ابتداء امرة يبتل فى جبل حراء منعزل اليه حتى قوى فيه نور النبوة فكان الخلق لايحجبونة فكأنه ببدنه مع الخلق ، وبقلبة مقبلا على الله تعالى) (٢)

---

(١) سورة الفلق الايه (١ : ٣)

تلك كانت حياته قبل البعثة . ولقد وجد الصوفية الاوائل فيها نموذجا يحتذى واسوة تغذى ارواحهم وتدفعهم دفعا الى التحنف والخلوة ومايلزمها من مجاهدات ورياضيات ومايتنتج من محاولة اجتلاء انوار الحقيقة اثناء التقلب فى المقامات والاحوال ومايجدونه من تأملات نفسيه عميقة هى فى اخر الامر معرفة حقيقية وفهم دقيق لتوحيد الله عز وجل وتوثيق الصلة بين العبد والرب — الذى هو مصدر كل حركة .

وسكون انقباض وانبساط وحزن وفرح ومجاهدة وذوق — ومكاشفة ومشاهدة وفتوح العبادة فى الظاهر وفتوح الحلاوة فى الباطن ذلك هو مادفع صاحب الرسالة (ص) الى التزام الخلوة والتفكر الدائم فى هذا الكون وهو ماحاول الصوفية معرفته عن طريق العزلة والذكر والفكر .

حياة النبى (ص) بعد البعثة :

على أننا نجد فى حياة النبى (ص) بعد البعثة أرضا خصبة لمعارف الصوفية وعلومهم وفهومهم وتقلبهم بين الاحوال التى ترد عليهم والمقامات التى يقومون فيها فقد كان الرسول (ص) زاهدا فى متاع الحياة كثير العكوف على العبادة والتجهد حتى نهاه القرآن عن الوصال بقولة " طه ماأنزلنا عليه القرآن لتشقى " (١) ضاربا فى ذلك المثل على انه لايخضع

---

(١) احياء علوم الدين الجزء السادس الامام الغزالى ص ١٠٤٧

فى السيادة الا لله وحدة وانه لايملكه شيئ من متاع الحيـــاة الزائل وا لادلة على هذا اكثر من أى تحصى منها قولة (ص) (الدنيا ملعونة مافيها الا ماكان لله منها) (١) ومنه ايضا قولة (ص) ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعلمون) (٢) ومنه قولة (ص) الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له) (٣) .

كان (ص) يقول (اللهم احيينى مسكينا وتوفنى مسكينـا واحشرنى فى زمرة المساكين ، وأن اشقى الاشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الاخرة) (٤) .

ولقد أمر الرسول (ص) باهمال الدنيا وعدم الاكتـراث بشأنها فقال (ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فـى ايدى الناس يحبك الناس) (٥) .

واذا كان النبى قدوتنا فى السلوك وأسوتنا التى نتأسى بهـا فان اولى الناس بذلك أزواجة فقد خيرهن القرآن الكريم بيـن متاع الدنيا وزينتها وبين الله ورسولة فاخترن الله ورسولـة .

ولنستمع الى أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنهـا اذا تقول (لما أمر الله رسولة (ص) بتخيير أزواجة بدأ بى ، فقال

---

(١) سورة طه ١ ، ٢ (٢) رواة الترمذى وابن ماجة عن حديث ابى هريرة (٣) متفق عليـه .
(٤) فيض القدير رواة الحاكم جـ ٢ .

انى ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا لاتعجلى حتى تستأمرى ابويك قالت وقد علم أن ابواى لم يكونوا يأمرانى بفراقة قالت : ثم قال ان الله جل ثناؤة قال " ياأيها النبى قل لازواجك ان كنتن ترون الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن ترون الله ورسولة والدار الاخر فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما (١) .

قالت: فقلت ففى أى هذا استأمر ابواى فأنى اريد الله ورسولة والدار الاخر قالت ثم فعل أزواج النبى (ص) مثل ما فعلت. (٢)

لقد عاش رسول الله (ص) حياة الزهد ومن يحول حتى تصف، السيدة عائشة تلك الحياة لابن اختها فتقول : (كان يمر بنا هلال وهلال مايوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم نار - قال ابن اختها عروة بن الزبير قلت ياخالة فعلى أى شيئ كنتم تعيشون قالت : على الاسودين التمر والماء) (٣)

وعن زهدة فى فرشة وحاجة نفسه يقول سيدنا انس بن مالك رضى الله عنه " دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على سرير مضطجع مزمل بشريط وتحت رأسة وسادة من آدم حشوها ليف، فدخل عليه نفر من اصحابة ودخل عمر فانحرف رسول الله صلى الله عليه وسلم انحرافة فلم ير عمر بين جنبة

---

(١) رواة احمد من كحديث عائشة

(٢) رواة ابن ماجة .

(٣) سورة الاحزاب الايتان ٢٨، ٢٩

وبين الشريط ثوبا وقد أثر الشريط بجنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى عمر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك ياعمر ؟ قال والله ما أبكى الا لكونى اعلم انك اكرم على ربك من كسرى وقيصر ويعيشان فى الدنيا فيما يعيشان فيه أنت يارسول الله فى المكان الذى أرى فقال الرسول صلى الله عليه وسلم أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الاخرة قال بلى فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (١) فانه كذلك ولقد كان زهدة فى الدنيا يدفعه دفعا الى انفاق ما يصل الى يدة من اغراضها حتى اجمع الواصفون على أنه اسخى الناس اجمعين فلايبيت عندة دينار ولا درهم وان بقى شىء لم يوزعه بذل جهدا كبيرا فى انفاقه كى لايبيت فى بيته دينار ولا درهم وكان يشتد عليه الجوع الى درجة انه كان يعصب الحجر على بطنه، لم يشبع من خبز بر ثلاثة ايام متوالية وتتحدث السيدة عائشة رضى الله عنها عن ذلك فتقول (ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ايام تباعا خبز بر حتى مضى لسبيلة) (٢)

وباختصار فقد كانت شخصيته مجمع صفات الخير حتى استحق تلك الشهادة من الله المسطرة فى القرآن الكريم وهو عبد الله ورسولة الى الخلق اجمعين وذلك كلة دليل على

---

(١) الوفاء ١ (٢) رواة البخارى .

(٣) رواة الامام احمد .

عظمة تلك الشخصية وهو فى نفس الوقت امعان فى تخليد ذلـــك النموذج البشرى الذى صفاة الله من كدورة المادة وخلصة مـــن علائق البدن وشواغل الحس حتى اصطفاة وجعلة موضعا للرسالـة العالمية الخالدة وقد تمثلت هذة الاخلاقية الاسلامية بكمالهـا وجمالها وتوازنها واطرادها وثباتها فى محمد صلى الله عليـه وسلم وتمثلت فى ثناء الله العظيم فى قولة تعالى [وانك لعلـــى خلق عظيم (١) ، (٢)

وهذا المديح اظهار لحقيقة هذة النفس فى سموهــا وشموخها وعظمتها وترفعها عن الدنيا وانها تستمد العظمــة من الرسالة المنوطة بها وهى فى هذا العلو ابعد مدى مـــن وصف الواصفين الذين أكبوا على الشخصية المحمدية فحصـــا ودراسة ، وصفا وتحليلا هذة الايه قد بلغت نهاية القصد فلـــم تترك للواصفين مجالا يذكر بعد هذا المديح الذى تتضمنه هذة الايه نظرا لصدورها من الخلاق العليم .

واذن فان الصوفية قد وجدوا المادة الاولى لعباداتهم وزهدهم وتقشفهم ومقاماتهم واحوالهم فى حياة النبى صلـــى الله عليه وسلم والتى استنبطوها وطوروها فى شكل نظريات ذوقيه قائمة على أساس من المعاناة والخبرة المباشرة .

---

(١) رواه مسلم (٢) سورة القلم آيه " ٤ "

(٣) انظر فى ظلال القرآن لسيد قطب ط الشروق ص ٣٦٥٧ المجلد السادس .

(٤) ارجع اللمع السراج الطوسى ص ١٣٤ .

الفصل الثالث

حياة الصحابة ومنازعهم في الزهد

الفصل الثالث

(تمهيـــد)

(حيـــاة الصحابـــة)

كانت حياة الصحابة هي الأخرى منبعا فياضا استقى منـــه الصوفية منازعهم في إقبالهم على الله ولا يستطيع أي باحث منصف إغفال دور الصحابة عندما يريد التعرف على الأسس التي قامت عليها حياة الصوفية المستمدة من حياة الصحابة وماذاك إلا لأنهم كانـــوا يترسمون خطى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأحواله وأفعاله ومن ثم نظر الصوفية إلى الصحابة على أنهم قدوة في جميع أفعالهم ولقـــد صور الطوسي في اللمع بعض أحوال الصحابة حيث روى عن أبي عتبـة الحلواني أنه قال : (« ألا أخبـركم عن حال كان عليها أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولها أن لقاء الله تعالى كان أحب (إليهـم) من الحياة ، الثانية وأنهم كانوا لا يخافون عدوا قلوا أو كثـــروا والثالثة أنهم لم يكونوا يخافون عوزا من الدنيا وكانوا واثقين بـرزق الله تعالى) [1] .

والذي لاشك فيه أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم باقتدائهـــم

---

(1) اللمع ص ١٦٧ .

وتأسيهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاولة تقليدهم له فى أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته ونومه ويقظته ذلك كله كان ركيزة أساسية اعتمد عليها الصوفية فيما ذاقوه من عبادات وأحوال ومقامات وهم على حق فى ذلك، لأن الصحابة فى واقع الأمر كانوا رواداً للروح فى هذا المجال بما أودع رسول الله قلوبهم من عقيدة التوحيد التى جعلتهم عباداً خلاصاً له لا يخضعون إلا لمراقبته المسيطرة على قلوبهم وخلجات صدورهم ووجداناتهم حتى كان الفرد منهم دائم المحاسبة للنفس خلال خلواته وجلواته وروحاته وغدواته خائفا من يوم الحساب الأعظم التى يظهر فيها كل مستور عن أعين الغير.

وعلى هذا الأساس عمل الصحابة حتى لم يعد للراحة طريق إلى أبدانهم فأجهدوها بالوقوف طويلا فى قيام الليل انتظارا لفتح الله على عقولهم وقلوبهم بفهوم جديدة تفتح لهم آفاق المعرفة وتزيد فى محبتهم ومن ثم يكون القرب من الله وذلك غاية المنى.

وما أجمل هذا الوصف الذى صدر من قائد جيوش الروم عندما سأله هرقل عن سر انتصار المسلمين على الروم برغم قلة عددهم وعتادهم فقال أنا أخبرك ياسيدى إنهم بشر ليس كالبشر إنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار إنهم يصلون ويصومون ولا يشربون الخمر ولا يزنون ولو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده وما منهم من أحد إلا ويتمنى أن يموت قبل أخيه .

أجل لقد صدق الرجل فى وصفه فقد عكف الصحابة علـــى القرآن يتفحصون، ويتأملونه بقصد فهم معانيه وإدراك مراميه حـتى لقد كانت تمنعهم قراءته الإغراق فى النوم فلقد كانوا يمضون أيامـا وليالى فى تأمل القرآن ٠

وإذا كنا لانستطيع أن نأتى على كل أخبار الصحابة فى الزهد والورع فيما اتخذه الصوفية مصدرا لهم فإننا سنورد بعض النماذج التى تعبر تعبيرا صادقا أمينا عن مدى ارتباط الصحابة رضـوان الله عليهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعله الأسوة والقدوة فى جميع أحوالهم وأفعالهم ٠

(أبو بكر الصديق)

ونحن نؤثر أن نبدأ برفيق الغار وموضع أسرار النبى ومحبته ، وهو أبوبكر الصديق رضى الله عنه ذلك الرجل الذى يعتبره الصوفية — بحق — مصدرا لفتح الله عليهم باعتباره خير من يتأسى به بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول أبوبكر الواسطى أحد أعلام الصوفية الكبار (إن أول لسان الصوفية ظهر فى هذه الأمة على لسان أبى بكر إشارة فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء) (١) .

والسبب فى أن الصديق الأول للرسول هو أول لسان للصوفية هو أنه حين خرج من جميع ملكه وزهد فى ماله قال له النبى الأعظم ماذا خلفت لعيالك ؟ قال أبوبكر : الله ورسوله . وهذه الإجابة القلبية النفسية الروحية الطاهرة إن دلت على شىء فإنما تدل على أنها إشارة جليلة لأهل التوحيد فى حقائق التفريد (٢) وهل هناك مَثَلٌ رائد فى الصدق أعظم من هذا ، إنه مَثَلٌ فى الصدق

---

(١) اللمع للطوسى ص ١٦٨ .
(٢) اللمع للطوسى ص ١٦٩ ، ١٧١ — ١٧٢ .

مع النفس ، مَثَلٌ فى علو الهمة ، مثل فى الفداء ، مثل فى التضحيـــة .
وكل تلك المثل مدفوعة بمحبة الله ورسوله ولهذا كان مرجعـــا
للصوفية يغترفون من تصرفاته ما ينتصرون به لمجاهداتهم بقصـــد
محاولة تأصيلها وإرجاعها إلى هذا النموذج الراشد الثقـة كمـا
يعتمدون على فهم أبى بكر لبعض النصوص القرآنية حيث كان ينفرد
بمواقف ذات طابع ذوقى تنبع من نفسيته الإشراقية العالية ولنضرب
لذلك مثالا من بين أمثاله الكثيرة تدلنا على مدى عمق فهمـــه
للقرآن وإدراك مراميه،يقول أبو بكر (ثلاث آيات من كتاب اللـــه
اشتغلت بها عما سواها إحداها قوله : " وإن يَمْسَسْكَ اللّـــهُ
بِضُرٍّ فلا كاشفَ له إلَّا هو وإن يُرِدْكَ بخير فلا رادَّ لفضلـه "
فعلمت أنه إن أرادنى بخير لم يقدر أحد أن يرفع عنى غيره ، وإن
أرادنى بشرّ لم يقدر أحد أن يصرف غيره وهكذا يؤمن أبو بكـــر
بالقدر خيره وشره حلوه ومره وهو أصل من أصول العقائد الإيمانيـة
التى غرسها الرسول الأمين فى صحابته والآية الثانية قولـــه :
" اذكرونى أذكركم " فاشتغلت بذكر الله عن كل مذكور سوى اللـه
وهذا الأمر هو أساس الطريق الصوفى كله بل هو أفضل ما فـــى
التصوف مصداقا لقوله تعالى " أَلَا بِذكرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ القلـــوبُ "
أما الآية الثالثة فقوله " وما من دابةٍ فِى الأَرْضِ إلاَّ على اللّهِ رزقها "

فو الله ما هممت برزق منذ قرأت هذه الآية ، وهذا القول داخل في مقام التوكل [١] .

من هذا القبيل ما يذكره صاحب الحلية عن إجابة سؤال طرحه أبو بكر على الصحابة ثم أجاب عليه إجابة روحية تختلف عن إجاباتهم فقد قال لهم (ما تقولون في هاتين الآيتين ، إنَّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا " و الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم . قال : ربنا الله ثم استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم بخطيئة . قال : لقد حملتموها على غير المحمل ثم قال : قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره ولم يلبسوا إيمانهم بشرك) [٢] .

لهذا الذي ذكرناه — وغيره كثير — يقرر الصوفية أنهم يعتمدون على ما رزق الله الصديق من أفهام في مقاماتهم المختلفة كمقام التوحيد والتوكل وغيرها فإذا ما انتقلنا إلى نظرة الصديق إلى الحياة الدنيا نراه عازفاً عنها آزفا من الآجلة فعن زيد بن أرقم أن أبا بكر رضي الله عنه : استقى فأُتي بإناء فيه ماء

---

(١) اللمع للطوسي ص ١٦٩ ، ١٧١ — ١٧٢

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ص ٣٠ — ٣١ ط سنة ١٩٧٤

وغسل فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله ، فسكت وما سكتوا ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على مساءلته ثم مسح وجهه وأفاق فقالوا: ما دعاك إلى هذا البكاء ؟ قال كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم وجعل يدفع عنه شيئا ويقول " إليك عنى " ولم أر معه أحدًا فقلت يارسول الله أراك تدفع عنك شيئا ولا أرى معك أحدًا ؟ قال : "هذه الدنيا تمثلت لى بما فيها فقلت لها إليك عنى فتنحت وقالت : أما والله لئن انفلت منى لا ينفلت منى مَنْ بعدك " فخشيت أن تكون قد لحقتنى فذاك الذى أبكانى) (١) .

من الأمثلة الدالة على زهده فى الدنيا مارواه عن حميد بن هلال قال : لما ولى أبو بكر قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : افرضوا لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يغنيه قالوا : نعم برداه إنْ أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما وظهره إذا سافر ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل على أهله قبل أن يستخلف

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : مات أبو بكر رضى الله عنه فما ترك دينارا ولا درهما وكان قد أخذ قبل ذلك ماله وألقاه فى بيت مال المسلمين وقال : كنت أتجر فيه وألتمس به فلم وليتهم شغلونى عن التجارة والطلب فيه " (٢)

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ص ٣٠ ـ ٣١ ط سنة ١٩٧٤

(٢) الحلية لأبى نعيم جـ ١ ص ٣٢ .

وعن زيد بن أرقم قال : كان لأبى بكر الصديق رضى الله عنه مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة ، فقال له : مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة ؟ قال : حملنى على ذلك الجوع من أين جئت بهذا ؟ قال : مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم فوعدونى فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطونى. قال : إن كدت أن تهلكنى فأدخل يده فى حلقه فجعل يتقيأ ، وجعلت لا تخرج ، فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها . فقيل له يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ قال : لو لم تخرج إلَّا مع نفسى لأخرجتها . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (كل جسد نبت من سُحْت فالنار أولى به فخشيت أن ينبت شىء من جسدى من هذه اللقمة . (١)

---

(١) الحلية لأبى نعيم حـ ١ ص ٣٢

وقد وجد الصوفية فيه عطاء مستمرا لما يرون أنه السبيل الموصل إلى القرب من الله عز وجل خصوصا فى الأحوال التى كانت تعتريه وهو يقرأ القرآن الكريم ومن ذلك ما روته عائشة من أن أبا بكر كان رجلا بكّاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : يا أبا بكر قد علمت الذى عقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلىّ ذمتى فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى عقد رجل عقدت له فقال أبو بكر : فإنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله ورسوله) ، ويروون أنه عندما قدم أهل اليمن ليستمعوا القرآن جعلوا يبكون فقال أبو بكر: هكذا كنا ثم قست القلوب .

ويروون عنه أنه كان إذا قرأ القرآن أثناء الصلاة سُمِعَ له أزيز كأزيز المرجل من كثرة الخوف والوجل وكان سبَّاقا إلى الخيرات بطبعه فيذكر التاريخ أنه كان أول من صدّق رسول الله فى دعوته وكذلك كان أول من يسارع إلى تلبية داعى النبى للمؤازرة سواء أكان بالنفس أم بالمال فأما مؤازرته بالنفس فيشهد لها ما روى من أنه عندما وصل النبى إلى باب الغار : قال أبو بكر يا رسول الله دعنى فلأدخل قبلك فإن كانت حية أو شىء كانت لى قبلك قال : ادخل فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيده فكلما رأى حجرا جاء

بثوبه فشقه ثم ألقمه الحجر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع قال فبقى حجر فوضع عقبه عليه ثم أدخل رسول الله . قال فلما أصبح قال له النبى صلى الله عليه وسلم فأين ثوبك يا أبا بكر ، فأخبره بالذى صنع فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال "اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة ، فأوحى الله تعالى إليه " أن الله قد استجاب لك " (١) .

وأما مؤازرته بالمال فيشهد لها ما رواه عمر عن واقعة حاول فيها عمر أن يسبق أبا بكر فما أستطاع إلى ذلك سبيلا يقول عمر: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك مالا عندى فقلت اليوم أسبق أبا بكر قال فجئت بنصف مالى قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك قال فقلت مثله وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أبقيت لأهلك قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، قال عمر : والله لا أسابقك إلى شىء أبدا .

وكان دائما يعيش بين حالتى الخوف والرجاء حتى أصبحت التقوى له مقاما . انظر إليه يوصى الناس بالتقوى فى كل طور من أطوار

---

(١) الحلية لأبى نعيم ص٣٣ ، شهر القرآن والصيام للمؤلف ط الحرية

الحياة وأن يجعلوا القرآن دستورهم فى جميع المعاملات (فهذا كتاب الله لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره ، فصدّقوا قوله وانتصحوا كتابه واستبصروا فيه ليوم الظلمة فإنما خلقكم للعبادة ووكل لكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون) (ويطيل الوقفة متأملا فى الأجيال السالفة فيجد أنهم ذهبوا فى بطون التاريخ حتى لكأن التاريخ لا يعرفهم) (فأين الملوك الذين كانوا أثاروا الأرض وعمروها قد نُسُوا ونُسِىَ ذكرُهم فهم اليوم كلا شىء) (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، وهم فى ظلمات القبور) (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) وأين مَنْ تعرفون مِنْ أصحابكم وإخوانكم ؟ قد وردوا على ما قدموا فحلوا الشقاوة والسعادة فإن الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيرا ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره وإنه لا خير بخير بعده النار ولا شر بشر بعده الجنة (١)

وكان أبو بكر على قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاولته تقليد النبى والتأسى به فى كل ما يدخل تحت الطاقة كان رغم ذلك يضع الموت أمام ناظريه يستحضره فى كل لحظة خائفا من النار

---

(١) الحلية لأبى نعيم ص ٣٦ ، ٣٧ جـ ١

طالبا الجنة يدل على ذلك ما قاله لعمر فى اللحظات الأخيرة من أجَلـــه :

(اتق الله ياعمر واعلم أن لله عز وجل عملا بالنهار لايقبلـه بالليل وعملا بالليل لايقبله بالنهار ، وأنه لايقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهـم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الحق غــدا أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامـة باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيـه الباطل غدا أن يكون خفيفا ،وأن الله تعالى ذكر أهل الجنـة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ،فإذا ذكرتهم قلـت لاأخاف أن لا ألحق بهم ، وأن الله تعالى ذكر أهل النار فذكرهـم بأسوأ أعمالهم ورد عليهم أحسنه ، فإذا ذكرتهم قلت إنى أرجـو أنْ لا أكون مع هؤلاء ، ليكون العبد راغبا راهبا لايتمنى على الله ولا يقنط من رحمته عز وجل ، فإن أنت حفظت وصيتى فلا يكـن غائب أحب إليك من الموت ــ وهو آتيك ــ وإن أنت ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه [1] .

---

(١) الحلية لأبى نعيم ص ٣٦ ــ ٣٧ جـ ١

وبالجملة فقد كانت شخصيته ، رضى الله عنه، مزيجاً من التقوى المصاحبة للخوف والرجاء والورع، مبرءاً من الكبر والغرور والخيلاء والعجب . تروى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت لبست ثيابى فطفقت أنظر إلى ذيلى ، وأنا أمشى فى البيت والتفت إلى ثيابى وذيلى ، فدخل علىّ أبو بكر فقال ياعائشة أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ، قلت: ومم ذاك؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ قالت فنزعته فتصدقت به . فقال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عنك" (١) ويقول هو عن قلبه الموزع بين الخوف والرجاء : لو نادى مناد من السماء أنه لن يلج الجنة إلا رجل واحد لرجوت أن أكون أنا هو ، ولو نادى مناد من السماء أنه لا يدخل النار إلا رجل واحد لخفت أن أكون أنا هو" (٢) ولقد كان (رضى الله عنه) ذا لطائف وإشارات تعتبر مرجعا للصوفية يغترفون منها ويتخذونها موئلا فى المحجة فمنها ما روى من أنه عندما لحق الرسول بالرفيق الأعلى نظر أبو بكر إلى الصحابة من حوله فوجدهم قد اضطربت قلوبهم وطاشت عقولهم ، فصعد

---

(١) الحلية ص ٣٧ جـ ١
(٢) المصدر السابق ص ١٧٢ جـ ١

المنبر ، ثم قال : من كان يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم فإن محمدا صلى الله عليه وسلم قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت . واللطيفة فى ذلك تثبيته لقلوب الصحابة وأفئدتهم ، وقد بدا ثابت الجنان لم يلحقه اضطراب .

ومن اللطائف التى أجراها الله على قلب الصديق ولسانه ما روى من أن أبا بكر خاطب عائشة قائلا : إنّى كنت نحلتك نحلا وإنما هما أخواك وأختاك ، وما عرفت عائشه إلا أخوين من الذكور وأختا وقد كان لأبى بكر امرأة حامل فى الأشهر الأخيرة لم تلد بعد فألقى الله فى روعه أن ينطق بأنها أنثى وقد صدقت فراسته .

قال عنه الجنيد بن محمد شيخ الطائفة (أشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا العجز عن معرفته [1] .

ويوم وفاته ارتجفت المدينة من هول المفاجأة وقطع عَلِىٌّ ذلك الاضطراب بذاك الرثاء الصادق الذى عبر تعبيرا صادقا عن رفيق الغار إذ قال : (رحمك الله أبا بكر كنت والله أول القوم إسلاما

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٢ .

وأصدقهم إيمانا ، وأشدهم يقينا وأعظمهم غنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدبهم على الإسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله صلى الله عليه وسلم خلقا وفضلا وهديا وسمتا فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين خيرا ، صدقت رسول الله حين كذبه الناس وواسيته حين تخلوا وقمت معه حين قعدوا وسماك الله فى كتابه صديقا فقال (والذى جاء بالصدق وصدق به) يريد محمدا ويريدك كنت والله للإسلام حِصْنًا وللكافرين ناكبا ، لم تفلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك، كنت كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ضعيفا فى بدنك، قويا فى دينك ، متواضعا فى نفسك عظيما عند الله جليلا فى الأرض ، كبيرا عند المؤمنين ، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى، فالضعيف عندك قوى ، فلا حرمك الله أجرك ولا أضلنا بعدك[1] هذا بعض ما أردنا إثباته عن حياة أبى بكر وزهده وورعه وإعراضه عن الدنيا ، هو كما رأينا رفدا من الروافد الخصبة التى استمد منها الصوفية قواعد السلوك للتعرف على الله عز وجل

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق د / عبد المجيد الترحينى ص١٨، ١٩ جـ٥ ط دار الكتب العلمية — بيروت .

عمر بن الخطاب

فإذا انتقلت إلى نموذج آخر من النماذج التى اتخذها الصوفية منارا لهم وجدنا عمر بن الخطاب ذلك العابد الناسك الورع الذى ضرب أروع الأمثلة فى تطليق الدنيا والزهد فيها ، إذ تغلب على قواه النفسية الجسمية فتحول من إنسان معاد للحق عزوف عنه إلى إنسان قد سخّر جميع قواه للإسلام من بعد أن عرف الحق وخالطت بشاشته قلبه حتى لقد أسماه الرسول الفاروق ، ويعنى بهذه التسمية أن الله فرق به — يوم أن أسلم — بين الحق والباطل وثبت به قواعد التوحيد على أصولها وأخذت الدعوة إلى دين الله شكلا جديدا إذ تزلزلت أركان الباطل يوم أن أعلن إسلامه . فكان إسلامه فتحا وكانت هجرته نصراً وإمارته رحمة [1] فكان عمر عند الصوفية صاحب ذوق ووجد وحال وتغيرت عليه الأحوال حتى ثبت فى مقام الورع والتقوى والمراقبة ثباتا غير مفارق حتى كان ينادى من بعيد

فتجاوب مع أصداء صوته الجبل الأشم مفسحا لصوته الطريق حتى يصل إلى سمع قائد المسلمين ما يريده من تعليمات (ياسارية الجبل) [١] لهذه الأسباب احتل عمر مكانة عاليا فى نفوس الصوفية لما بين جنبات صدره من نفس عالية وروح وثبة فى دفع الدعوة إلى الأمام وإعلاء راية الحق حتى جمع الله به كلمة المسلمين (فعلت بالتوحيد أصواتهم بعد تخافت وثبتوا فى أحوالهم بعد تهافت) [٢].
حتى غدت (السكينة تنطق على لسانه والحق يجرى الحكمة عن بيانه ، كان للحق مائلا ، وبالحق صائلا ، وللأثقال حاملا ولم يخف دون الله صائلا) [٣] (فكان للدين معلنا ولأعمال البر مبطنا) [٤] ولهذا فإن أهل التصوف يشعرون بالانتماء إليه قولا وعملا فهو عندهم (قائد أهل الإيمان وفقير أهل الإحسان إمام أهل الحقائق وغريق بحر المحبة صاحب الكرامات المشهورة) [٥].

بحيث أصبح عندهم المرجع الذى يفيئون إليه ويستمدون منه ألوان العبادات التى ذاقوها كما ينسجون على منواله فى إقباله على الآخرة وإعراضه عن الدنيا وزهده فيها، فيذكرون أن سيدنا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ص ٦٣٩ تحقيق محمد محي الدين ط الشعب
(٢) ، (٣) ، (٤) حلية الأولياء ص ٣٨ إلى ٥٥ جـ ١ .
(٥) كشف المحجوب للهجويرى ط دار النهضة العربية ص ٢٦٩ ، ٢٧٠

عمر قد ناقشته ابنته حفصة فى اتخاذه المرقعات من الثياب إذ قالت لأبيها : يا أمير المؤمنين لو اكتسيت ثوبا هو ألين من ثوبك وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير فقال لها : إنى سأخاصمك إلى نفسك أما كنت تذكرين ما كان رسول الله يلقى من شدة العيش وكذلك أبو بكر فما زال يذكرها حتى أبكاها فقال لها : أما والله لأشاركنهما مثل عيشهما لعلى أدرك عيشهما الرخى) [1] فانظر إلى هذه الدقة فى محاولة التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى الزهد فى الدنيا والتقرب إلى الله بالعيش الخشن وهو الذى يستطيع — لو أراد — أن يعيش فى بحبوحة من العيش تصل إلى حد الإغراق فى الترف والنعيم لكن همته متوجهة إلى الآخرة للحاق بصاحبيه ولقد تأكد هذا المعنى فيما يؤثر عنه من دوام المحاسبة والمراقبة فى مثل قوله (زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وحاسبوها قبل أن تحاسبوا فإنه أهون عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) [2]

---

(١) ابن الجوزى : صفة الصفوة ط. الهند ص ١٠٨
(٢) حلية الأولياء ص ٥٢ ع ٥٩ جـ ١

كان لابد أن يكون لعبادته التي عبر بها منطق عملي يقوم على شدة الخوف من الله وإخلاص العبادة والإمعان في العبودية واستشعار الربوبية فكان بحق من هؤلاء العباد (الذين يميتون الباطل بهجره ويحيون الحق بذكره ، رُغِّبوا فترغبوا ورهبوا فترهبوا ، خافوا فلا يأمنون ، أبصروا من اليقين مالم يعاينوا أخلصهم الخوف فكانوا يهجرون ما ينقطع عنهم لما يبقى لهم . الحياة عليهم نعمة ، والموت لهم كرامة فزوجوا الحور العين وأخدموا الولدان المخلدين (١)

ويعد الخليفة الثاني منارة للصوفية يترسمون خطاه في أقواله وأفعاله إذ يعتبرون أن الخليفة الثاني عمر - رضي الله عنه - قد أقام بنيان المنطق الصوفي على أساس من الأقوال والأفعال التي أرست القواعد المنهجية للصوفية وأصّلتها تأصيلا بحيث أصبح لها كيان متميز وجملة القول : أن أهل التصوف يرون الاقتداء بعمر سبيلا يوصل إلى الغاية المأمولة عندهم ، وهي الشعور الجلي بالحب والقرب من الله عز وجل وهم يستدلون على ذلك بما تركه عمر لنا من تراث في الأقوال والأعمال فمن ذلك قوله للجماعة المسلمة

---

(١) الحلية لأبي نعيم ص ٥٢ ، ٥٥ جـ ١ .

(كونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم وسلوا الله رزق يوم بيوم) [1] .
وقوله أيضا (لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيت الله لولا أن أضع جبهتي لله أو أجلس في مجالس ينتقى فيها طيب الكلام كما ينتقى جيد التمر أو أن أسير في سبيل الله عز وجل) [2] ولقد كان رضى الله عنه يمر بالآية من كتاب الله عز وجل (فيبكى حتى يسقط ثم يلزم بيته حتى يعاد يحسبونه مريضا) ومن تواضعه وزهده مايروون من أن عبد الله بن عباس دخل على عمر حين طعن فقال (له أبشر ياأمير المؤمنين ، فإن الله قد مصّر بك الأمصار ودفع بك النفاق وأفشى بك الرزق ، قال أفي الإمارة تثنى علىّ يا ابن عباس، فقلت : وفى غيرها قال : والذى نفسى بيده لوددت أنى خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وزر) [3] .

ويبدو خوفه من الله فى عباراته التالية التى تعبر عن هذا القلب الخائف الوجل من خشية الله وهى قوله (لو نادى مناد من السماء أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلا واحدا ، لخفت أن أكون هو ولو نادى مناد أيها الناس إنكم داخلون النار إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون هو) [4]

---

(١) ،(٢)، (٣) ،(٤) الحلية لأبى نعيم ص ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ جـ١ .

وانظر إليه وهو يضع دستورا للأخلاق بهدف قيادة الحياة يقول رضى الله عنه (لا تعترض فيما لا يعنيك ، واعتزل عدوك واحتفظ من خليلك إلا الأمين ، فإن الأمين من القوم لا يعادله شئ ، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره ، ولا تفش إليه سرك واستشر فى أمرك الذين يخشون الله عز وجل)[1] ويمكن التعرف على منازع عمر فى السلوك من هذا النص ونحن نعتقد أن هذا النص وأمثاله يصح أن يكون قاعدة عامة لقيادة السلوك البشرى فى مجال الأخلاق وصدق العباس إذ يقول عن عمر وكان جارا له (ما رأيت أحدا من الناس أفضل من عمر إنّ ليله صلاة ، وإن نهاره صيام وفى حاجات الناس) .

لا عجب بعد ذلك أن يجعله الصوفية قبلة أنظارهم ومحطّ رحالهم فى التأسى والاقتداء فى (تركه الشهوات واجتناب الشبهات وإظهار الكرامات وقلة المبالاة من لائمة الخلق عند انتصاب الحق ، ومحق الباطل ، ومساواة الأقارب والأباعد فى الحقوق والتمسك بالأشد من الطاعات) وحياته حافلة بالتقلب فى العبادات والطاعات والولايات . لحق بربه شهيدا رضى الله عنه .

---

(١) الحلية لأبى نعيم جـ ١ ص ٥٥ .

ويمكن تحديد معالم طريق الوصول إلى الله فى نظر عمر — فى نقاط ثلاث :—

أولهما : القيام بطاعة الله والالتزام الجاد بأداء الفرائض ٠

ثانيهما : أن يجعل الفرد بينه وبين حرمات الله سدا منيعا من المراقبة المستمرة بحيث يحول بين العبد وبين الوقوع فى المحظور ٠

ثالثهما : الالتزام الموضوعى بالجهاد فى سبيل إعلاء راية هذا الدين والضرب على يد العابثين الذين ينتهكون حرمات الله والإرشاد المستمر إلى اتخاذ المعروف سبيلا للتعاون على البر والتقوى ونبذ المنكر ٠

(عثمان بن عفان)

(ثالث القوم القانت ذو النورين ، والخائف ذو الهجرتين والمصلى إلى القبلتين ، هو عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فكان ممن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، غالب أحواله الكرم والحياء ، والحذر والرجاء حظه من النهار الجود والصيام ، ومن الليل السجود والقيام ، مبشر بالبلوى ، منعّم بالنجوى) (٢) .

ولقد وجد الصوفية فيه طلبتهم فى التنسك والعبادة التى بلغت فيه درجة عليا من التطور الروحى للمعانى التى يؤمها الصوفية من كرم وحياء ، وحذر ورجاء ، وتقلل من الدنيا والانشغال بالمعبود الواجد بمداومة الصوم بالنهار والوقوف على أبواب الحق فى نشأة الليل حيث ينام الناس فى نوم عميق ويبقى هو مشغولا بربه يصلى له ويطيل السجود مبتهلا إليه أن يؤمن عثرته ويستر عورته ويقدم كشف حساب دقيقا أفضى فيه بمكنون سره إلى ربه كل ذلك فى تتبع مستمر ولقد أكد ذلك المنهج الذى التزم به بقوله (أولهما —

التحبب إلى الله بالنوافل ، ثانيهما – الصبر على أحكام الله
ثالثهما – الرضا بتقدير الله ، رابعهما – الحياء من نظر الله

والناظر فى هذه العبارة يدرك إدراكا جازما أن عثمان بن عفان كان ملجأ حصينا تحصّن فيه الصوفية إذ جعلوه ملاذا لهم يفسرون بعباراته وتصرفاته ما يقومون به من مجاهدات ورياضات وما يترتب على ذلك من الكرامات التى تحدث لهم والإدراكات التى تنكشف لبصائرهم من العرش إلى الطش ، فلا غرابة بعد ذلك أن نسمع من أئمة القوم عبارات ملؤها الإعجاب والفخر والثناء على (جوهر كنز الحياء ، وأعبد أهل الصفاء والتعلق بأعتاب الرضا والمتمكن على طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم)(١).

ولقد أخبره الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه سوف يبتلى فقد كان أبو بكر وعمر وعثمان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذهبوا لبعض شأنهم فما إن وصلوا إلى جبل أحد حتى اهتزّ فقال النبى صلى الله عليه وسلم " اثبت أحد فإنما عليك صديق وشهيدان وتلك إشارة خصه بها الرسول حيث أشار إلى ما سيقع لهذه الرفقة كما يروى أن عثمان دخل على رسول الله مستأذنا فأذن له وبلغه بأن الله سيدخله الجنة لبلوى تصيبه .

(١) كشف المحجوب ص ٢٧١ ، ٢٧٣

ومن أوثق مايدل على تمكنه من نفسه وإرغامها على مايريد الله ورسوله ماروى من أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فحث على تجهيز جيش العسرة فقال عثمان : علىّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها قال ثم حث فقال عثمان :علىّ مائة أخرى بأحلاسها قال ثم حث فقال عثمان :علىّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقول بيده يحركها : ما على عثمان ما عمل بعد هذا) [١]

ومثله ماروى من أنه (قد أصاب الناس مجاعة فى غزوة تبوك فاشترى عثمان طعاما على ما يصلح العسكر وجهز به عيرا فنظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى سواد مقبل ، فقال :هذا جمل أشقر قد جاءكم بعيرة . فأنيخت الركائب فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء وقال : اللهم إنى قد رضيت عن عثمان فارض عنه [٢] وهاتين الواقعتين اللتين يذكرهما التاريخ بكل ثناء واعتزاز تدلان على أن هذا الإمام الجليل كان يسخّر ماله كى يكون وسيلة إلى اكتساب رضا الله (عزوجل) كما أنهما تدلان على أن عثمان كان مالكاً لزمام نفسه كما ألمحنا إلى ذلك آنفا ويمكن أن نتعرف تمام المعرفة على هذه الشخصية من مقالته التالية حيث قال رضى الله عنه (وجدت الخير مجموعا فى أربعة ....

---

(١) الحلية لأبى نعيم ص٥٧و٥٨
(٢) العقد الفريد ص ٣٧ .

أولهما : التحبب إلى الله تعالى بالنوافل ، والثانى : الصبر على أحكام الله تعالى ، والثالث : الرضا بتقدير الله عز وجل ، والرابع : الحياء من نظر الله عز وجل) [١] .

(أما اقتداء هذه الطائفة به فى بذله المال والحياه والتسليم فى الأمور ، والإخلاص فى العبادة . وهو على الحقيقة إمام حق فى الحقيقة والشريعة وطريقته فى المحبة ظاهرة) [٢] جلية ، ومما يدل على ثبوته فى مقام الرضا والتمكن والثبات والاستقامة أنه يوم قتل (لم يبرح موضعه ، ولم يأذن لأحد بالقتال ولا وضع المصحف من حجره إلى أن قتل (رضى الله عنه) وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم ووقع الدم على موضع هذه الآية (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) فرضى الله عن عثمان أحد المبشرين بالجنة والذى مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض .

---

(١) اللمع للسراج الطوسى ـ ص١٧٨

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم ص٥٥ جـ١ .

(على بن أبى طالب)

وسيد القوم (ابن عم المصطفى وغريق بحر البلاء ، وحريق نار الولاء وقدوة الأولياء والأصفياء [1] راية المهتدين ونور المصلحين وولى العادلين ، أقدمهم إجابة وإيمانا ، وأعظمهم حلما وأوفرهم علما ، زينة العارفين المنبئ عن حقائق التوحيد على بن أبى طالب كرم الله وجهه) [2] وصفه ضرار بن حمزة فقال :

(كان يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن . يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، ... أشهد الله رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه يميل فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين فكأنى أسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا يا ربنا — يتضرع إليه — ثم يقول للدنيا إلىَّ تغررتِ إلىَّ تشوفتِ ، هيهات هيهات ، غرى غيرى قد بَتَتُّكِ ثلاثا فعمرك قصير ، ومجلسك حقير وخطرك يسير آه آه من

---

(١) كشف المحجوب ص ٢٧٣

(٢) حلية الأولياء ص٦١ جـ١

قلة الزاد ، وبعد السفر ووحشة الطريق) [١] .

ولقد خص أمير المؤمنين على رضى الله عنه بمعان شريفة وإلهامات لطيفة وعبارات فى بيان التوحيد والمعرفة والإيمان والعلم وغير ذلك ، هذه الخصوصيات جعلته قبلة أنظار الصوفية ومحط أرواحهم فى التأسى والاقتداء إلى حد أن قال الجنيد عنه (إنه شيخنا فى الأصول والبلاء)

ويجد الصوفية مراميهم ومعانيهم فيما تركه على من تراث مكتوب يشرح فيه ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يجعل المفاهيم الصوفية كيانا واضح المعالم إذ يتحدث عن الصبر واليقين والجهاد والعدل أركاناً للبناء الإسلامى فينقل عن النبى أن الإسلام (بنى على أركان أربعة الصبر واليقين والجهاد والعدل ، وللصبر أربع شعب الشوق والشفقة والزهادة والترقب فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد فى الدنيا تهاون بالمصيبات ومن ارتقب الموت سارع فى الخيرات ولليقين أربع شعب تبصرة الفطنة ، وتأويل الحكمة ، ومعرفة العبرة ، واتباع السنة فمن أبصر الفطنة تأول

---

(١) المصدر السابق ص١٨٥ ط٨ .

الحكمة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة اتبع السنة ومن اتبع السنة فكأنما كان فى الأولين وللجهاد أربع شعب: الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر والصدق فى المواطن ، وشنآن الفاسقين ، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين ، ومن صدق فى المواطن قضى الذى عليه وأحرز دينه ومن شنأ الفاسقين فقد غضب لله ومن غضب لله يغضب الله له وللعدل أربع شعب : غوص الفهم ، وزهرة العلم ، وشرائع الحكم وروضة الحلم فمن غاص الفهم فسّر جمل العلم ومن وعى زهرة العلم عرف شرائع الحكم وورد روضة الحلم ومن ورد روضة الحلم لم يفرط فى أمره وعاش فى الناس وهم فى راحة [1] .

فلا غرابة فى أن الصوفية يقتدون به فى حقائق العبارات ودقائق الإشارات والتجريد عن معلوم الدنيا والنظر فى تقدير الحق) [2] .

فنظر إلى تلك الإشارات وتلك اللطائف التى سنعرضها فى السطور التالية تدليلا على أنه كان إماما يقتدى به فى هذا اللون

---

(١) الحلية لأبى نعيم ص٧٤ ، ٧ جـ١

(٢) كشف المحجوب ص٢٧٣ ، ٢٧٤ .

من الرياضة الروحية إذ كانت أقواله رضى الله عنه متطابقة مع أعماله والنص التالى يدلك على صدقه فى وصف وفد الرحمن الذين هم المتقون العابدون الزاهدون الذين نبذوا الدنيا واتجهوا بكل كيانهم إلى مراقبة ربهم طمعا فى ثواب الآجلة ونبذا للعاجلة

قال رضى الله عنه إجابة على سؤال مَنْ سأله أن يصف له المتقين فقال (المتقون هم أهل الفضائل منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ، ومشيتهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء ولولا الأجل الذى كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم ، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأجسامهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها ،

أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن ، يرتلون ترتيلا يحزنون به أنفسهم ويستثيرون دواء دائهم ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا وتطلعت نفوسهم إليها شوقا وظنوا أنها نصب أعينهم وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها

مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم وأما النهار فحكماء علماء ، أبرار أتقياء قد براهم الخوف برى القداح[1]

ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض[2] ويجمع حقائق القوم ومقاماتهم فى العبارة التالية إذ يقول (الخير كلـه مجموع فى أربعة : الصمت والنطق والنظر والحركة ، فكل نطـق لايكون فى ذكر الله فهو لغو ، وكل صمت لايكون فى فكر فهو سهو وكل نظر لايكون فى عبرة فهو غفلة وكل حركة لاتكون فى تعبد اللـه فهى فترة ، فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكرا وصمته فكرا ونظـره عبرة وحركته تعبدا ويسلم الناس من لسانه ويده)[3] .

وتبلغ التقوى كمالها حين يصل العبد إلى مرتبة الزهـد وإذا تحدثنا عن الزهد فى الدنيا وتجنب الملذات الصارفة عـن التدبر والتفكر فيما وراء العالم المادى المحسوس فإننا نجد الإمام عليًا ، قد ضرب بسهم وافر فى مجال الزهد إذ يقول (طوبـى للزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة أولئك قوم اتخذوا الأرض

---

(١) القداح جمع قدح . الكسر . قبل أن يراش ويراه نحته ، أى رقـق الخوف أجسامهم كما ترقق السهام بالنحت .

(٢) نهج البلاغة لابن ابى الحديد جـ٢ ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ شرح الشيخ محمد عبده ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .

(٣) اللمع ص ١٨٠ .

بساطا وترابها فراشا وماءها طيبا ، والقرآن والدعاء دثارا وشعارا) [١] فعلى المسلم أن يكون دائم المراقبة لله بمحاسبة النفس على ما يصدر عنها من أفعال ذلك لأن (الدنيا لا يدوم نعيمها ولا تؤمن فجائعها . غرور حائل ، وشبح قائل وسناد مائل

اتعظوا عباد الله بالعبر واعتبروا بالآيات والأثر ، وازجروا بالنذر وانتفعوا بالمواعظ فكان قد علقتكم مخالب المنية ، وضمكم بيت التراب ، ودهمتكم مقطعات الأمور بنفخة الصور ، وبعثرة القبور ، وسياقة المحشر وموقف الحساب بإحاطة قدرة الجبار كل نفس معها سائق يسوقها لمحشرها ، وشاهد يشهد عليها بعملها ((أشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون)) .[٢]

ويعتقد الصوفية أن عليا صاحب خصوصية امتاز بها عمن سبقه من الخلفاء فقد وهبه الله العلم اللدنى يقول الإمام الجنيد شيخ الطائفة عنه أنه (لولا اشتغاله بالحروب لأفادنا

---

(١) الحلية لأبى نعيم ص٧٩ جـ١
(٢) المصدر نفسه ص٧٨ جـ١ .

من عملنا هذا بمعانى كثيرة ذاك امرؤ أعطى العلم اللدنى ، والعلم اللدنى هو العلم الذى اختص به الخضر .

قال تعالى " وعلمناه من لدنا علما " (١)

لهذا يجد الصوفية قبلتهم وطلبتهم فى الإمام على كرم الله وجهه وبالجملة فإن الخلفاء الأربعة كانوا أساسا لمنازع الصوفية ومشاربهم فكل قد تحدث عما يحس ويجد فى الصحابى الذى يأخذ عنه فى وجد معين (فمن ترك الدنيا كلها وخرج من جميع ما يملك وجلس على بساط الفقر والتجريد بلا علاقة فإمامه فيه أبوبكر ومن أخرج بعضها وترك البعض لعياله ولصلة الرحم وأداء الحقوق فإمامه فيها عمر بن الخطاب ومن جمع الله ومنع لله وأعطى لله وأنفق لله فإمامه عثمان بن عفان ومن لا يحوم حول الدنيا .. وإن جمعت عليه من غير طلبة ، رفضها وهرب منها فإمامه فى ذلك على ابن أبى طالب)(٢) .

---

(١) السراج الطوسى : اللمع ص ٣٧٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٢ .

(أبو ذر الغفاري)

وإذا نحن نتحدث عن الينابيع الأولى التي استمد منهـا الصوفية مذاقاتهم وألوان علومهم وفهومهم تبرز شخصيـة أبي ذر الغفاري كعلم من أعلام هذا اللون من التذوق والزهـد لما عرف من الزهد في الدنيا والإعراض عن زخارفها وزينتهـا واحتراق قلبه بنار الندم على ما يمكن أن يكون قد لحق به مـن تقصير ، فلقد أمضى عمره كله والدنيا وراء ظهره متخليا عنها ناظرا إلى ماينتظره من العقبى متحملا مختلف صنوف البلاء وظل كذلك حتى لحق بمولاه ، ولقد برزت هذه الشخصية كمحور للتصوف عندما وقف في وجه معاوية وحده معلنا استنكاره الشديد لما دب فـي أوصال الدولة من ترف محذرا إياه من أن ذلك يؤدي مـآلا إلى خراب الدولة عندما تتركز هذه الأموال في أركان الدولـة ووجهائها فيؤدي ذلك إلى الاكتناز الذي حرمه القرآن بقولـه

" والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل اللـه فبشرهم بعذاب أليم "(١) .

---

(١) سورة التوبة الآية (٣٤) .

على حين أن معاوية يرى أنها نزلت فى أهل الكتاب بينما يرى أبو ذر أنها عامة تشمل كل كانز سواء أكان من أهل الكتاب أو من المسلمين .

ولقد كان أبو ذر دهشا من الحال الذى وصل إليه الأمويون ممثلين فى معاوية الذى كان واليا على الشام من قبل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولنسمع إلى أبى ذر إذ يصور زهده فى الدنيا بقوله (والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم ولا تقاررتم على فرشكم والله لوددت أن الله عز وجل خلقنى يوم خلقنى شجرة تعضد ويؤكل ثمارها) (١) .

ومن هذا المنطلق كان أبو ذر يحتقر الكانزين الجامعين للمال باعتبار أن الحساب يوم القيامة عسير على أولئك الذين عطلوا المال ولم ينفقوه فى سبيل الله وحتى عندما تيسر لديه فائض مال رفض أن يدخر ما زاد عن حاجته متذكرا عهد رسول الله إليه قائلا إن خليلى عهد إلى أنّ أى مال من ذهب أو فضة أوكى عليه فهو جمر على صاحبه إلى أن ينفقه فى سبيل الله (٢) .

---

(١) الزهد: أحمد ابن حنبل ص ١٤٦ .
(٢) الزهد: أحمد بن حنبل ص ١٤٦ .

ولقد كان يتعقب معاوية فى غدواته وروحاته مشددا النكير عليه مذكرا إياه أن الدنيا معبر إلى الآخرة .

وأمام هذا الإلحاح والإصرار من أبى ذر الغفارى خاف معاوية على ولايته أن تتمزق أو أن يشغب عليها بعض الثائرين من أطرافها فكتب إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه يشرح له موقف أبى ذر منه وجاء الرد مع البريد أرسله إلى المدينة ولقد وصل أبو ذر إلى المدينة ودار بينه وبين الخليفة هذا الحوار الرقيق الذى يعرض فيه عثمان رضى الله عنه على أبى ذر الإقامة عنده حيث تغدو عليك اللقاح وتروح ، فرفض أبو ذر هذا العرض ثم عرض أن يقيم فى خلوة عرف الإقامة فيها يوما ما . تلك هى الربذة

فغادر المدينة إليها بناء على طلبه درءاً لفتنة واتقاءً لانقسام .

ونحن نثبت هذا الحوار متعمدين لكي يكون فيه رد على أولئك الذين حاولوا الإيقاع بين المسلمين مصورين الخليفة الثالث رضى الله عنه صورة فيها غبن وتجنٍ إذ حاولوا أن يثبتوا أن عثمان رضى الله عنه قد عامل أبا ذر بغلظة وجفاء وأرغمه على أن يذهب إلى المنفى الذى حدده له . والتيار الذى يتحمس لهذا الرأى هو اليعقوبى ، ومن نحا نحوه حيث زعم أن أبا ذر كان معترضا على النفى بحجة أنه عائذ بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم (المدينة) فقال عثمان له ستخرج وأنفك راغم) وهذا بالطبع لا يتناسب مع ما عرف عن الخليفة الثالث من هدوء واتزان وخلق فاضل ولكن الحق أن الخليفة عندما استدعاه تلطف فى حديثه معه ودار بينه وبينه الحوار التالى :ــ

(دخل أبو ذر على عثمان مستئذنا فى الذهاب إلى الربذة فقال عثمان نعم ونأمر لك بنعم من نعم الصدقات تغدو عليك وتروح قال لا حاجة لى فى ذلك تكفى أبا ذر صرمته ثم قام فقال اعزموا دنياكم ودعونا وربنا وديننا)[1] .

---

(١) انظر اليعقوبى، والحلية لأبى نعيم ص١٦٠ جـ١ .

وذهب إلى منفاه وهناك أمضى بقية عمره متفرغا للعباده زاهدا فى الدنيا حتى أصبح علما على الزهد والرياضة الروحية .

وقد اشتهر — رضى الله عنه — بالمواعظ التى تأخذ بمجامع الألباب وتستولى على المشاعر فمنها قوله : (ياأيها الناس هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق ، فاكتنفه الناس فقال : أرأيتم لو أن أحدكم أراد السفر أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟ قالوا بلى قال : فسفر يوم القيامة أبعد ما ترون فخذوا منه ما يصلحكم قالوا ... وما يصلحنا ؟ قال ... حجوا حجة لعظائم الأمور.. صوموا يوما شديدا حره لطول النشور ... صلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور ... كلمة خير تقولها ... أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم ... تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها ... اجعل المال درهمين ... درهما تنفقه على عيالك من حله ... ودرهما تقدمه لآخرتك والثالث ... يضرك ولا ينفعك لاتريده ... ثم نادى بأعلى صوته ... ياأيها الناس... قد قتلكم حرص لا تدركونه أبدا)[1] .

---

(١) الحلية لأبى نعيم ص١٦٨ جـ١

ولقد أفادته ملازمته للرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا حيث سأل الرسول عن كل شيء من الأصول والفروع ، والإيمان والإحسان وقد كانت الخلوة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تمكنه من أن يدير حوارا بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم

فكان يطلب أن يضع له دستورا فى الحياة العلمية يقتدى بها فى الطريق الموصلة إلى الله فكثيرا ما كان يطلب الوصية من رسول الله ولا يكتفى بوصية واحدة بل كان يلح فى طلب المزيد حتى يكون قريبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم القيامة. والنص التالى يشرح لنا مدى الحال التى كان عليها أبو ذر رضى الله عنه قال :

"قلت يا رسول الله أوصنى .. قال : أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله قلت يا رسول الله زدنى : قال عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك فى الأرض وذكر لك فى السماء قلت يا رسول الله زدنى قال : إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه قلت يا رسول الله زدنى قال : عليك بالصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان عنك وعون لك على أمر دينك قلت يا رسول الله زدنى قال : انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك فإنه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عندك قلت يا رسول الله زدنى : قال

يرد ث عن الناس ما تعرف عن نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتـــى وكفى به عيبا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك أو تجد عليهم فيما تأتى ، ثم ضرب بيدة على صدرى فقال (يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ورو ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق (١) .

واستمر الزهد مسيطرا عليه طول حياته إلى أن قضى نحبه فى الربذة دون أن يجد ثوبا له أو لزوجته لتكفنه فيه .

تذكر المراجع أن أبا ذر حين حضرته الوفاة اشتد بكـاء امرأته ، فسألها فى لطف لم تبكين ؟ والموت طريق المؤمنين إلى الآخره فأجابته إننى لا أخاف الموت ولكن الحال التى وصلنا إليها قد بلغت من الشدة مبلغا لا تمكننا من أن نجد كفنا لك وهنـا أخبرها بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له ولنفر معه (ليموتن منكم رجل بفلاة من الأرض فتشهده عصابة من المؤمنين وليس من أولئك النفر رجل إلا وقد مات فى قرية أو جماعة من المسلمين وأنا الذى أموت بفلاة) وأمرها أن تلقى بنظرة على الطريق لعلها تجد ركبا يعينها فى هذا الشأن ما هى إلا ساعات قد مرت حتى وجدت جماعة من المسلمين كشفت لهم حاجتها فاستجابوا لها فدخلوا على أبى ذر فأخبرهم بمقالة النبى صلى الله عليه وسلم

(١) الحلية لأبى نعيم ص١٦٨ ج١

فابتدرهم بقوله لا يكفنني رجل منكم كان في موقع من مواقع السلطة يوما ما . فرد عليه فتى أنصاري بأن تلك المطالب قد توفرت فيه ثم باشر الفتى مهمته واتفق أن كان الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود مارا فأعان الفتى على دفن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثاه يقول :

(أخي وخليلي ، عاش وحده ومات وحده ويبعث وحده
طوبى له .)

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

(عبدالله بن مسعود)

ومن شخصيات الصحابة الأجلاء الذين كانوا حصنا للصوفية يحتمون بهم ويأخذون عنهم عبدالله بن مسعود الهذلى الذى كان سباقا إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم، بل نستطيع بلغة العصر أن نسميه سفيرا ينقل الدعوة إلى الذين حاولوا أن يصموا آذانهم عنها فقد كان رضى الله عنه يحاول فى إصرار أن يسمعهم القرآن برغم علمه بأنه سيلقى عنتا كثيرا منهم. قال ابن إسحق:

(كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبدالله بن مسعود – رضى الله عنه – قال اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – فقالوا والله ما سمعتْ قريش هذا القرآن يجهر لها به قطُّ فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال عبدالله ابن مسعود: أنا. قالوا – إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه قال : دعونى فإن الله سيمنعنى ، قال فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ "بسم الله الرحمن الرحيم – رافعا بها صوته: الرحمن علّم القرآن قال ثم (بدأ) يقرؤها قال : وتأملوه فجعلوا يضربون وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه

فقالوا له هذا الذى خشينا عليك فقال ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا قالوا : لا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون) (١) .

ولقد كان لابن مسعود صولات وجولات فى كتاب الله كان يخلو فيها إلى نفسه مناجيا ربه سائلا إياه حاجته فعن علقمة (قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إنى جئتك من عند رجل يملل المصحف عن ظهر قلب ففزع عمر وغضب وقال : ويحك انظر ما تقول ، قال ما جئتك إلا بالحق قال : من هو قال عبد الله بن مسعود

قال ما أعلم أحدا أحق بذلك منه وسأحدثك عن عبد الله إنا سمرنا ليلة فى بيت عند أبى بكر فى بعض ما يكون من حاجة النبى صلى الله عليه وسلم ثم خرجنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم - يستمع إليه فقلت يا رسول الله أعتمت فغمزنى بيده : اسكت . قال : فقرأ وركع وسجد وجلس يدعو ويستغفر فقال النبى صلى الله عليه وسلم (سل تعطه) ... ثم قال من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد " (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد جـ١ ق ٣٣ ، ص ٣٣٧ ط التحرير .

(٢) الحلية لأبى نعيم ص ١٢٤ جـ١ .

ومن أقواله في تعظيم القرآن والعناية به (إن هذا القـرآن مأدبة الله فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعل فإن أصفـر البيوت من الخير ، الذى ليس فيه من كتاب الله شىء وإن البيت الذى ليس فيه من كتاب الله شىء كخراب البيت الذى لا عامر له)[1] .

وما أجمل تعبيره عن القلوب التى حوت القرآن وأنست بـه فقد اعتبر هذه القلوب أوعية نقية يقول – رضى الله عنه (القلـوب أوعية فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره)[2] .

ومن أقواله الدالة على حبه للقرآن وخوفه من الله وخشيته منه قوله (ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمـون وبنهاره إذ الناس يفطرون وبحزنه إذ الناس يفرحون وينبغـى لحامل القرآن أن لا يكون جافيا ولا غافلا ولا صخابا ولا صياحا ولا حديدا)[3].

ويحث الناس على العمل الصالح ونبذ الدنيا واطراحهـا والعمل لما بعد الموت الذى هو أمر حتمى لا عاصم منه فى مثل قوله (إنكم فى ممر الليل والنهار فى آجال منقوصة وأعمال محفوظـة

---

(١) (٢) المصدر نفسه ص١٣١ جـ١

(٣) المصدر نفسه ص١٣٠ جـ١ .

والموت يأتي بغتة ، فمن يزرع خيرا يوشك أن يحصده رغبة[1] ومن يزرع شرا يوشك أن يحصد ندامة ولكل زارع مثل ما زرع لا يسبق بطيء بحظه ولا يدرك حريص ما لم يقدر له فمن أعطى خيرا فالله تعالى أعطاه ومن وقى شرا فالله تعالى وقاه . المتقون سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة)[2] .

وما نستطيع تحصيله من هذا النص أن اتجاه ابن مسعود في العبادة يقوم على الحقائق الآتية :ـ

١ ـ إن الدنيا ليست مستندا يتكئ عليه فهي دائرة بين أجل منتهى وعمل مكتوب ومن ثم يجب على الإنسان أن يدفع الغفلة عن نفسه ولا يغرق في شهوات الدنيا بل يكون زاهدا فيها .

٢ ـ إن الدنيا هي مزرعة يتم حصادها في يوم الحساب عند البعث ومن ثم فإن للعمل أهمية كبرى في ميزان العبد يوم القيامة وكأنه بهذا يستحضر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

---

(١) المصدر نفسه ص١٣٠ جـ١

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ص١٣٤ جـ١ .

٣ ـ لا يصلح حال المجتمع إلا بتقوى الله والفقه فى دينه وبهذا يتكون المجتمع الطاهر النقى .

ولقد كانت وصاياه ومواعظه مطبوعة بطابع الأخلاق حتى لتحس وأنت تستمع إلى تلك المواعظ أنك أمام أستاذ معلم يضع منهج الأخلاق والسلوك لمجتمع يراد له أن يصل إلى قمة الكمال فى التربية والسلوك ماذاك إلا لأنه وضع لنفسه نبراسا يهتدى به وقدوة حسنة يقتدى بها وما كانت قدوته إلا بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والنص التالى يعطينا الدليل على ما قلناه : قال ابن مسعود موجها الحديث إلى المجتمع المسلم طالبا منه حسن العمل والاقتداء بهدى النبى قال :

(إن اشرف الحديث ذكر الله ، وخير القصص القرآن وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ونفس تنجيها خير من أمارة لا تحيصها ، وشر العذيلة حين يحضر الموت وشر الندامة ندامة القيامة ، وشر الضلالة الضلالة بعد الهدى ، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وخير ما ألقى فى القلب اليقين والريب

من الكفر ، وشر العمى عمى القلب . ومن الناس من
لا يأتي الجمعة إلا دبرا ، ولا يذكر الله إلا هجرا
وأعظم الخطايا الكذب ، وسباب المسلم فسوق وقتاله
كفر ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يعف يعف الله
عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ومن يغفر يغفر
الله له ، ومن يصبر على الرزية يعقبه الله ، وشر
المكاسب كسب الربا ، وشر المآكل مال اليتيم
والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن
أمه ، وإنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه ، وإنما
يصير إلى أربعة أذرع والأمر إلى آخره ، وملاك العمل
خواتمه ، وشر الروايا روايا الكذب ، وأشرف الموت قتل
الشهداء ومن يعرف البلاء يصبر عليه ومن لا يعرفه
ينكر ومن يستكبر يضعه ومن يتولى الدنيا تعجز عنه ومن
يطع الشيطان يعص الله ومن يعص الله يعذبه)[1] .

---

(١) الحلية لأبي نعيم ص١٣٨ ، ٢٣٩ ج١ .

وهكذا كان ابن مسعود كلفاً بصلاح المجتمع قريبا من اللـــه عز وجل صاحب ملكة قوية فى مراقبة الله وإتقان العمل ولذا استحـــق أن يكون إمام أولئك الزهاد ومحط رحالهم فى الاقتداء والاهتـــداء وطلب الحقيقة العليا .

* سلمان الفارسى

ومنهم كذلك الصحابى الجليل سلمان الفارسى الذى عرف عنه الإخلاص فى العبادة والزهد فى متع الحياة الدنيا .

يحدثنا التاريخ بأنه كان موضع تنازع شديد بين أهل السنة والشيعة نظرا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم (سلمان منا أهل البيت) لكن الطرفين متفقان على أنه قطع شوطا طويلا فى محاولة البحث عن إجابة لهذا السؤال: أين الحق؟ وما طريق الوصول إليه ؟

ولاشك أن معرفة الإجابة قد استغرقت وقتا طويلا منذ كان وثنيا فارسيا ، فباحثا عن الحق فى ضوء المسيحية ، حتى منَّ الله عليه بالإسلام. يذكر ابن هشام وغيره أن سلمان الفارسى كان ذا رتبة عالية فى المجوسية حيث عمل خادما للنار ثم اضطرته الظروف إلى ترك خدمة النار مؤقتا لبعض شأن أبيه فمر بإحدى كنائس النصارى فسمع صلاتهم ووقعت من نفسه موقعا حسنا حيث كانت تختلف عن عبادته وعبادة آبائه ولما عاد كلم أباه فيما حدث له من تأثير شديد بما عاين وسمع فاستخدم أبوه كل الوسائل ليمنعه من أن يبرح البيت خوفا عليه من الدخول فى المسيحية التى تتعارض تماما مع طقوس

الفرس ومعتقداتهم واعمل سلمان الحيلة فى الهرب بغية الوصول إلى طلبته فألحق بركب متجه إلى الشام بقصد البحث عن أصول النصرانية. وما إن وصل إلى هناك حتى دلوه على أفضل علمائهم معرفة بهذا الدين فذهب إليه من فوره وصارحه بأمره وبقى معه إلى أن توفى، ثم رحل إلى الموصل قاصدا أفضل علمائها بالنصرانية فقضى فيها زمنا إلى أن قبض أيضا ثم انتقل إلى بلده نصيبين متخلفا إلى أحد رهبانها يتلقى عنه علم النصارى حتى حضرته الوفاة واستشاره فأشار عليه أن يذهب إلى بلدة عمورية بأرض الروم فحدد له أحد رهبانها فأقام معه سلمان مدة وما إن احسن بدنو أجله حتى طلب أن يعهد به إلى آخر فحدثه بعدم استطاعته تنفيذ ذلك الطلب حيث قد تغير الزمان وشغل الناس بدنياهم وسكت هنيهة ثم قال إنه (قد أظل زمان نبى .....) من الأمارات الدالة عليه (يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت ان تلحق بتلك البلاد فافعل)

وعلى الفور أخذ سلمان يتعرف على الوسائل التى تضمن له الوصول إلى أرض يعرفها بأوصافها ليبحث فيها عن نبى يعرفه بصفاته واستغرق ذلك منه جهدا ضخما وتصميما أكيدا ومعاناة

أذاقته ذل العبودية .

وصل سلمان إلى المدينة عاملا بها رقيقا فى أسر سيده اليهودى كل ذلك ومحمد صلى الله عليه وسلم بمكة لا يسمع سلمان عن أمره شيئا ثم استرق سمعه حديثٌ دار بين سيده وأحد أقربائه عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ فأذهلته المفاجأة وطفق يستبين أمر هذا المهاجر الذى استقر بالمدينة وأزمع فى نفسه أن يستوضح أمارته التى أخبره بها قس عمورية يقول سلمان (فلما أمسيت ذهبت إلى المكان الذى أقام به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شىء قد كان عندى للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم قال فضربته إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلوا وأمسك يده فلم يأكل قال : فقلت فى نفسى : هذه واحدة) ثم جئت إليه بعد زمن لم يطل (وقلت له : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة فهذه هدية أكرمتك بها . قال: فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه فأكلوا معه . فقلت فى نفسى هاتان ثنتان) ثم قابلت النبى صلى الله عليه وسلم بعد زمن وحاولت البحث عن (الخاتم الذى وصف لى صاحبى . فلما رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم استدبرته عرف أنى أستثبت فى شىء وُصِف

لى فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فأكببت عليه أقبله وأبكى ...... قال سلمان ثم قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم – كاتب يا سلمان فكاتبت صاحبى على ثلثمائة نخلة وأربعين أوقية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أعينوا أخاكم فأعانونى بالنخل فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب يا سلمان فاحفر لها فإذا فرغت من الحفر فإننى أضعها بيدى فلما فرغت جئته فأخبرته فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يغرسها بيده فوالذى نفس سليمان بيده ما ماتت منها فأديت النخل وبقى المال ، ثم أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيضة من ذهب "فقلت وأين تقع هذه يا رسول الله مما علىّ ؟ فقال خذها فإن الله سيؤدى بها عنك ..... فأوفيتهم حقهم منها) (١) .

ولقد صور صاحب الحلية كفاحه فى الإسلام أبدع تصوير حيث قال هو (الحكيم والعابد العليم وابن الإسلام رافع الألوية والأعلام أحد الرفقاء والنجباء وإليه تشتاق الجنة من الغرباء ثابت على القلة والشدائد لما نال من الصلة والزوائد) (٢).

---

(١) سيرة ابن هشام تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ص٢٣٣ ، ٢٤١ وانظر طبقات ابن سعد جـ٧ ص٣١٨ والحلية لابى نعيم جـ١ .

(٢) الحلية ، لأبى نعيم ص ١٨٥ جـ ١ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (السباق أربع : أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبشة)(١) .

أما زهده في الدنيا فقد طبقت شهرته الآفاق كان فيه مضرب المثل فقد كان عزوفا عن الدنيا مقبلا على الآخرة عاقدا العزم على تحري الأمور التي كان يأمره بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم متجنبا كل ما ينهى عنه متبعا لا مبتدعا يروون عنه مقالات كثيرة نورد بعضها علنا نستطيع أن نترك في ذهن القارئ انطباعا خاصا عن هذا الصحابي الجليل الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان)(٢) ذلك لما بذلوه في طريق الله والخير والعبادة من جهد استحقوا عليه ذلك الثناء والعظيم من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أصدق الأدلة على ذلك أنه لما حضرته الوفاة جعل يبكي فقيل له يا أبا عبد الله ما يبكيك ؟ أليس فارقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض فقال والله ما بي جزع الموت ولكن رسول الله

---

(١) رواه أبو نعيم عن أنس .

(٢) رواه الترمذي عن أنس

صلى الله عليه وسلم عهد إلينا عهدا : " ليكن متاع أحدكم من الدنيا كزاد الراكب) (١) .

وكان رضى الله عنه يقول: عجبا لمؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل ليس بمغفول عنه وضاحك ولا يدرى أربه راض عنه أم ساخط (٢)

ويمثل حال المؤمن فى الحياة الدنيا بحال مريض (معه طبيبه الذى يعلم داءه ودواءه فإذا اشتهى مايضره منعه وقال لاتقربه فإنك إن أصبته أهلكك ولا يزال يمنعه حتى يبرأ من وجعه وكذلك المؤمن يشتهى أشياء كثيرة مما فضل به غيره من العيش فيمنعه الله إياه ويحجزه عنه حتى يتوفاه فيدخل الجنة) (٣) .

وعلى المؤمن أن يلزم الصمت فيما لايعنيه وإن أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم (كلاما فى معصية الله) (٤) .

والذى يعنينا من هذه النصوص التى أوردناها آنفا أنها تشتمل على دراسة تحليلية لشخصية هذا الصحابى الجليل الذى أمضى طوال حياته باحثا عن الحق زاهدا فى المتع التى يهتن

---

(١) الحلية لابى نعيم ص١٩٦ جـ١ .
(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ص٢٤،٢٣ جـ١ ط الجيل .
(٣) الحلية لابى نعيم ص٢٠٧ ص٢٠٢ .

يدى الناس مدركا ان هذا المتع هى عطية من الله اليهم وهــــى
كذلك ظل لا يستطيع ان يمد المستظلين " بانس اذ ليس من طبيعته
ان يدوم » شأنه فى ذلك هأن الدنيا التى هى ظرف لذلك المتاع
العارض وأن على العاقل ان يستند الى الباقيه دون الفانيـــــه
ومن ثم عرف سلمان (رض) عنه بالعالم الزاهد بدءا من الحياه التى
كان يحصل فيها على كسبا من عمل يده كزارع للنخل جانيا للثمار ثــم
وصولا الى امير المدائن وهنا ارتفع دخله حتى اصبح خمسة آلا ف
درهم كان يتصدق بها جميعا دون ان يتبقى منها شيئا رغبة فيمـا
عند الله ورهبة من اكتناز الدينار والدرهم مع ذلك كان زاهـــــدا
يوفق بين مطالب الروح ومطالب البدن فلم يكن زهده اغراقا فـــى
الرياضه الروحيه بحيث ينسى نصيبه من الدنيا ولكنه كان زاهداً اكتسبه من الاسلام
خاتم الاديان ولذح البرهان بعد أن استبان الامر وادرك أن الفترة السابقه التى
التى قضاها باحثا عن الحقيقه التى قد توجب بالاسلام الذى يرى انه لا بد من التوفيق بين
حاجة الروح وحاجة البدن يروون انه ذهب الى صديقه وأخيـــه
أبا الدرداء فعرف من امره انه يصوم دهره ويقوم ليله فى عمليـــــه
مستمره بقصد اخضاع النفس وتهذيبها فاستنكر ذلك منه قائلا (ا ن
لنفسك عليك حقا ولربك عليك حقا وان لضيفك عليك حقا وان لأهلـك
عليك حقا فاعط كل ذى حق حقه) ٠

وهكذا لم يتأثر بعباداته القديمة التى نشأ فى محضها طفلا متنقلا إلى المسيحية فى طور من أطوار حياته دارسا ثم باحثا ومحللا فقد تخلص من هذه الآثار بالإسلام الذى اعتنقه نظريا وعمليا ووضحت لديه الحجة وظهرت الكلمة واكتمل البرهان .

وظل هذا العابد الناسك التقى الورع طوال حياته على هذا النهج إلى أن أدركته منيته فى خلافة عثمان رضى الله عنهما دون أن نسمع أنه زج بنفسه فى أتون الفتنة التى ظهرت فى عهد الخليفة الثالث — رضى الله عنه — وقد ترك فى سجلات التاريخ صورة واضحة المعالم لهذه الشخصية التى قدمت للإسلام كل معارفها فى دفع هذا الدين إلى الأمام حتى تنطلق الكلمة بغير حدود تدمر فى طريقها ما أقامه المجتمع الوثنى من أباطيل وأوهام .

(أبو الدرداء)

وهذا أبو الدرداء نموذج من النماذج الكثيرة التي اشتهرت بالزهد والورع والخوف من يوم الحساب .

يذكر ابن سعد في طبقاته أن أبا الدرداء إنما بلغ ما بلغ بسبب توافر صفات عدة تجعله في الرتبة الأعلى والمقام الأسمى في العبادة والزهد فهو فارس اشتهر بالفروسية وشارك النبي صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته وأبلى بلاءً حسنا وهو كذلك عالم بالأصول والفروع . وهو بسبب العلم والعمل يعد من علية الصحابة وكبرائهم وقد تخصص في رواية الحديث ينقله عن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك إلى أنه من أهل النية[1] كما يعبر ابن سعد نفسه وليس يقصد بهذا التعبير شيئا غير التعمق في الروح والإغراق في التذوق وما ينشأ عنها من أفهام ومنازع ترغم صاحبها على تصفية النفس وإبعادها عن الوطء الجسدي الذي يتطلب إشباعا ماديا خاصا

ومن ثم تتخلص النفس من مثالب الحس ومعايبه فتصفو من الكدر وإذ ذاك تصير إلى ربها وتسعد سعادة لا يحسها أصحاب المنازع

(١) الطبقات لابن سعد ص ٣٩٢ ج ٧ .

المادية ، فكانت عبادته تدبرا واعتبارا ، يدل على ذلك قوله (تفكر ساعة خير من قيام ليلة)[1] .

وهذا يعني أن أبا الدرداء وجه كل عناية إلى تطهير القلب فأسكنه الإخلاص وأبعده عن الرياء وكانت النتيجة أن كان في الدنيا زاهدا وللآخرة طالبا يقول — رضي الله عنه — (اذكر الله عز وجل في السراء يذكرك في الضراء فإذا أشرفت على شيء من الدنيا فانظر إلى ماذا تصير)[2] .

وكان ينتهج سلوكا صعبا لا يقدر عليه إلا الذين طرحوا الدنيا وراء ظهورهم وحددوا لهم هدفا واضح المعالم ، إنه النجاة من يوم توزن فيه الأعمال ويطالب كل واحد أن يأخذ كتابه وأن يقرأه على الخلائق قراءة متأملة وهناك يجد فيه الصغير والكبير والنقير والقطمير .

(وَنَضَعُ الموازين القسط ليوم القيامة
فلا تظلم نَفْسٌ شيئا وإن كان مثقال حبة
من خردل أتينا بها وكفى بنا
حاسبين)[3] .

---

(١) الحلية ص٢١٩ ج٧ .
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل ص١٣٧ .
(٣) الأنبياء ، الآية ٤٧ .

يروى أن زوج أبى الدرداء شكت إليه حاجتها إلى الدقيـــق فأجابها (إن أمامنا عقبة كؤود ، المخفف فيها خير من المثقل) (١)

والنص التالى يدلك على أن الرجل كان يقرن النظرية بالتطبيق ويعتقد أنه إذا انفصلت النظرية عن التطبيق أصبحت العادة رسوما لا معنى لها ولهذا فلابد من أن يتفقه المسلم ليدرك الصواب فـــى عبادته وكأنه يستشعر أن العبادة بلا فقه هى كالزرع الذى لم يصله الماء فمصيره إلى التساقط والزبول يقول رضى الله عنه (إنـــك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها ، وإنك لا تفقه كل الفقـــه حتى تمقت الناس فى جنب الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشـــد مقتا منك للناس) (٢) وقوله أيضا (أخوف ما أخاف أن يقال لى يـــوم القيامة أبا عويمر ، أعلمت أم جهلت ؟ فإن قلت علمت لا تبقى آيـــة آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها ، الآمرة هل ائتمرت؟ والزاجرة هل ازدجرت؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ، ودعـــاء لا يسمـــع) (٣) .

ويستفاد من مجموعة الاقوال التى تركها لنا أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ أن مذهبه فى السلوك يقوم على عدة دعائم :

---

(١) الزهد لابن حنبل ص١٣٧ ، ص١٣٨ .
(٢) الحلية لأبى نعيم ص٢٠٨ ، ص٢١٤ .

الدعامة الأولى :

هى إصلاح الفرد ليكون سبيلا إلى إصلاح المجتمع

الدعامة الثانية :

إقرار مجموعة من المبادئ الأخلاقية الرائدة التى توجه سلوك المجتمع إذا ما تحولت إلى قوالب ينصب فيها العقل الجمعى فيوجه السلوك إلى الصلاح والفلاح فى الدارين .

الدعامة الثالثة :

يرى أبو الدرداء أن السبيل إلى الفوز فى الدار الآخرة هو التقوى والورع ، والزهد فى هذه الحياة الفانية التى ليست فى الحقيقة إلا دار ابتلاء وهم ونصب .

يقول رضى الله عنه ـ موجها النصح إلى أخيه ـ فى الإسلام سلمان " ياأخى اغتنم صحتك وفراغك قبل أن ينزل بك البلاء مما لا يستطيع العباد رده ، واغتنم دعوة المبتلى ، وياأخى ارحم اليتيم وادنه منك وأطعمه من طعامك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (وأتاه رجل يشتكى قساوة قلبه ـ فقال الرسول صلى

الله عليه وسلم (أتحب أن يلين قلبك ؟ فقال نعم . قال ادن اليتيم منك وامسح رأسه وأطعمه من طعامك ، فإن ذلك يلين قلبك وتقدر على حاجتك.) ويا أخى من لى ولك بأن نوافى يوم القيامة ولا نخاف حسابا [(١)] .

ويروى أن رجلا سأل أبا الدرداء أن يعلمه كلمة ينال بها ثواب الله عز وجل ورضوانه فقال : "لا تأكل إلا طيبا ولا تدخل بيتك إلا طيبا وسل الله عز وجل رزق يوم بيوم ، وإذا أصبحت فعد نفسك من الأموات وهب عرضك الله عز وجل ، فمن سبك أو شتمك أو قاتلك فدعه لله عز وجل ، وإذا أسأت فاستغفر الله عز وجل) [(٢)] .

ولو أننا حاولنا أن نأتى على كل مواعظه وحكمه لطال بنا الوقت وتشعبت بنا المسائل وذلك لما به من كثرة العلوم وعمق الفهوم .

ويلفت النظر فى شخصيته أنه كان عاقلا لبيبا وذكيا أريبا وطبيبا متخصصا فى معالجة الأدواء التى تنزل بالقلوب حين تنحرف عن المعبود . وقد أثنى عليه معاوية - رضى الله عنه - فقال كان والله أبو الدرداء من العلماء الحكماء ، الذين يشفون

---

(١) الحلية لابى نعيم ص٢١٤ جـ١
(٢) المصدر نفسه ص٢٢٢ ص٢٢٢ جـ١

من الداء [1] وحق له أن يقول ذلك فلقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يمد الصوفية بفيض من بحر علومه ، وماذاك إلا أنه رفع عن حسه هموم الدنيا وشواغلها وبهذا فتح الله له باب الفهم على مصراعيه فألهمه الرشد والصواب فيما ينطق ، ولهذا كله اعتبره الصوفيه اماما لهم به يقتدون ومن بحره يغترفون ، فأنعم به من صحابىٍّ مقتدٍ برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذلك كان عرضاً موجزاً للتاريخ بعض أعلام الصحابة ، ولقد آثرت أن يكون هذا العرض موجزا اتقاء التطويل ورغبة فى أن أصل بالقارئ إلى معان محددة هى أن عبادة الصوفية ومناهجهم ومسالكهم ورياضتهم وضروب زهدهم كانت متأثرة فى نشأتها بصحابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذين عاينوه وتلقوا عنه والواقع أن أى باحث فى التصوف لا يستطيع أن يتجاهل أثر الصحابة فى إنماء هذا اللون من الحياة الروحية التى تقوم أساسا على تنمية الروح وإضعاف الجانب الحسى ، وقد كنا نستطيع أن نسترسل فى ذكر كثير من هؤلاء الصحابة الأجلاء لنثبت أن الحياة الروحية وما انطوت عليه من منازع وسلوك ومذاهب واتجاهات ، وما صدر عنهم من أقوال منطوقة أو منشورة كل ذلك قد نشأ من محاولة التأسى والاقتداء بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) ، (٢) المصدر نفسه ص٢٢٢ ص٢٢٥ جـ١ .

الفصل الرابع

حياة التابعين ومنازعهم فى الزهد

الفصل الرابع

(تمهيد)

بعد أن قدمنا نماذج من حياة الصحابة تدل دلالة واضحة على أن الصوفية كانوا يتز سمون خطاهم فى مسالكهم نحو الغايات العظمى وهى جرعة من رضا الله عز وجل تسرى فى أوصالهم وتنعم أرواحهم فيسكنون إلى الله وينعمون بحياة هانئة تتمثل فى رضا الرب المحبوب عن العبد الذى أسهر ليله وأظمأ نهاره فى طريق المحبة مرددا ذلك الهتاف الربانى ٠

(جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) (١)

وعلينا الآن أن نقدم بعض نماذج من زهاد التابعين المعروفين بالتعبد والتنسك الذين أعرضوا عن الدنيا ؛ إذْ أخضعوا أنفسهم لزهد قاس ورياضة جادة تنأى بالعبد عن دنيا الناس

---

(١) سورة البينة الآية رقم ٨ .

وتغيير مقاييسه فيصبح كل مأموله فى الحياة سنة وصال من ربه هى فى الحقيقة عالم النعيم وهو عالم نقى القلب ، لطيف المشاعر له أدب مع الله وأدب مع رسوله وأدب مع نفسه وأدب مع غيره .

عالم يصدر عن الله ويتجه إلى الله ويليق أن ينسب إلى الله .

وهذا العالم يتمثل فى أولئك الذين حظوا بشرف الصحبة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن ثم غدت حقائق التوحيد جلية ظاهرة فى سريرتهم أولا ثم فى سيرتهم ثانيا حيث طبقوها فى مراحل التنفيذ العملى لهذا الدين واضعين بذلك أرقى نظم الولاء والانتماء التى عرفتها البشرية ونحن هنا نسير وفقا للحديث النبوى الشريف القائل (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم) .

وانتهى عصر الصحابة الذى امتاز بطابع العبادة الصحيحة النقل عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فمثلا فى محاولة التأسى الكامل قدر الطاقة البشرية . ثم اقبلت الدنيا على الناس بكل ما فيها من زينة ومتاع آسر وترف مغرق. وذهب الناس مذاهب مختلفة فى التحليل والتحريم والتأويل لكن قوماً تركوا الدنيا وراءهم ظهريا وخلفوا ما يعتبره الناس متاعا ورأوه عذابا لا منجى منه إلا بالزهد فيما عند الناس هؤلاء هم الذين سموا فيما بعد اصطلاحا باسم الزهاد أو الصوفية .

وقد لمح هذا الملمح (ابن خلدون) فى الفصل الذى عقده عن التصوف تحت عنوان (فى علم التصوف) (١) حيث اعتبره من العلوم الحادثة فى الملة وكانت رد فعل للإقبال على الدنيا والتعلق بحبالها .

وكان من بين زهاد التابعين الأوائل (أويس القرنى) ، وعامر ابن عبد الله بن عبد قيس العنبرى البصرى ، ومسروق بن عبد الرحمن أبو عائشة الهمذانى الكوفى ، وعلقمة بن قيس أبو شبل النخعى الهمذانى ، والأسود بن يزيد أبو عمرو النخعى ، والربيع بن خيثم أبو زيد ، وهرم بن حيان العبدى وعبد الله بن ثوب وأبو مسلم الخولانى) وغيرهم كثير لكن سنتوقف قليلا عند " أبى سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى " لما له من تأثير قوى فى علم التصوف حيث إن التنسك من قبله كان مذاقات خاصة خاضعة لما يحس الناسك ويجد .

الحسن البصرى

أما بعد الحسن فقد أصبح للتصوف منهاج خاص يمكن الرجوع إليه،بل يمكن القول إنه أحد الذين كشفوا عن معانيه وتفتقت ألسنتهم بما فيه وكشفوا عن حقائقه ودقائقه ومن ثم لابد لنا من وقفة نستبين فيها حقيقة هذا الناسك العابد الزاهد " الحسن البصرى " ذكر التاريخ أنه ولد لأب فارسى على الأرجح فى سنة ٢١ هجرية وقد أُسِرَ أبوه فى ميسان حين استولى العرب عليها وكان أبوه نصرانيا ثم أسلم وتزوج بخيّرة وأنجبت له الحسن ثم فُكَّ أسرهما بعد ميلاد الحسن .

وكانت أمه ذات حديث شيق إذ تحدث الناس برصيدها الهائل من القصص والاخبار وهنا تدرك ما للسلام من أثر على ابنها فى تصدر موائد القصاص . فقد كان متمكنا من الرواية بدراية فائقة مما جعل له أثراً فى نفس مستمعيه وقُرّائه فى قرنه والقرون التالية .

وقد أدرك " الحسن البصرى " الفتنة التى أحدقت بعثمان وقتله شهيداً،ثم انتقل مع أسرته إلى البصرة وجاء زمان افتراق الكلمة وادعاء كل فرقة الرياسة عندما أطلت الفتنة برأسها متمثلة فى شبح الأطماع الشخصية والعصبية القبلية وتبعا لذلك انقسم المسلمون إلى قسمين رئيسين أحدهما ينتصر لعلى والآخر لمعاوية .

ونشير بادئ ذى بدء إلى أننا لم نرد الدخول فى اتجاهات الحسن البصرى السياسية وإلى أى الفرقاء كان انتماؤه لكننى فقط أقول إن هذا البحر الهائج المائج المضطرب بأمواج الأحداث والفتن المتضاربة والمتناقضة كل ذلك كان له رد فعل فى نفس الحسن أدى إلى نوع من العبادة أضفى عليها الحسن طابعا خاصا كأنها مَزِيّة مستقلة وسمة بارزة أعطت لمدرسة البصرة كيانا خاصا فى زهدها وخوفها وعبادتها بوجه عام . والواقع أن الفترة الزمنية التى ولد فيها " الإمام الحسن البصرى " قد أتاحت له أن يسمع كثيرا من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن طريق التلقى عن الصحابة مباشرة ومن بينهم الفقيه ابن عباس حَبْر هذه الأمة .

تذكر الأخبار أنه كان تلميذا لابن عباس قد تلقى عنه التفسير والدراسات القرآنية التى اكتسب فيها مهارة فائقة اذ علمته التمييز بين ما هو أصيل فى القصص وبين ما هو إسرائيلى دخيل .

كما تتلمذ على شيوخ آخرين من أمثال " عامر بن عبد قيس" وصلة بن أشيم وصفوان بن محرز أو بمعنى آخر اندرج الحسن البصرى شيئا فشيئا فى طائفة القُرّاء وأصبح — بعد مضى الجيل الكبير من التابعين وممن كانوا أسبق منه إلى حد ما (أقول

أصبح الحسن البصرى شيخ القراء) [(١)] وإمام الزاهديـــــن متأسيا بـــأقوام كانت الدنيا أهـــون على أحدهم من التراب تحت قدمـيه وإن أحدهم كان يمشى وليس عنده سوى قوتٍ يسيرٍ فيقـول: لا أجـــعل هذا كله فى بطنى لأجعلـــن بعضه لله عز وجل وإن كان أحـــوج ممن يتصدق به عليه) [(٢)] .

فانظر إلى لطيف إشارته عن أولئك الذين يرفضون الدنيا رفضـــا قاطعا إلا ما يقـيم الأود ويحفظ الحياة أما الباقى فهو فى نظرهـم نافـلة وفضل ينبغى أن يحفظ فى خزائن الحق تعالى حيث يدخـر ليـوم يسأل فيه عمـا قدم الإنسان لنفســه وأخّر . وبذا استحـــق ذلك الوصف الذى وصفه به صاحب الحلية بحق إذ قـال :

(حليف الخوف والحزن أليف الهم والشجن عـــديم النوم والوســن الفقيه الزاهد المتشمر العابد كان لفضول الدنيا وزينها نابـــــذا ولشهوة النفس ونخـــوتهـــا واقــذا) [(٣)]

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام المرحوم د / على سامى النشار صـــ ١٦٢ ، ١٦٣ . الجزء الثالث ط. الأولى ، دار المعارف

(٢) الحليـــة لأبـــى نعـيم صـــــ ١٣٤ جـ٢

(٣) المصدر السابق صـ ١٣١ ، ١٣٢ جـ ٢ الوسن من النعاس ، و وَقَذَه : صَرَعَهُ وسَكَّنَهُ وغَلَبَهُ وتَرَكَهُ عَليلاً .

وتقوم الحياة الروحية عنده على الزهد فى الدنيا واطراحها ، والاحتجاب عن الجاه والسلطان الذى هو حظ من حظوظ النفس . والإقبال على الله عنده قصد وغاية تسرى فى كل كيانه فتتمثل له دنيا الناس كأنها شيطان يحاول أن يصرعه فلابد من مصارعته وحربه ووسيلة الحرب الفاعلة الفتاكة لهذا العدو المادى اللعين هى الزهد فيها والإعراض عنها مع ملازمة الخوف من المصير والاستعداد ليوم الرحيل .

يقول المؤرخون إنه كان يغشى مجالس الذكر التى يجد فيها حلاوة القرب من الله والأنس به مع أولئك الزهاد والعباد الذين وجدوا فيه السبيل السابلة والطريق القويم إلى الحياة الروحية التى قوامها زهد " مع توكل وخوف مع حزن ولا بد أنه قد دار بينه وبين رفاقه من النساك والعباد حديث خائفٌ وَجِلٌ عما تتحدث به النفس من خاطرات وهواجس وما يقع فى القلب من خواطر ووساوس مادية وما لذلك من أثر فى التقصير فى الأعمال ما يجعل المشاعر جياشة هائمة خائفة مضطربة من المصير الذى سيواجهها قطعا مهما أكثرت من عمل الخير إن لم تمسَّ القلوبَ رحمةٌ " من الله وهو الرحمن الرحيم ولقد كان رضى الله عنه تابعيا وثيق الصلة بشيوخه مُجِلاً لهم .

يقول أبو قتادة معبرا عن أدبه فى التزام شيوخه من الصحابة :

(ما رأينا أحدا لم يصحب رسول الله " صلى الله عليه وسلم " أشبه بأصحاب الرسول منه (١)

فكان تابعيا بحكم النشئة التاريخية إلا أنه صحابى بحكم المحبة للرسول (صلى الله عليه وسلم) لقد كانوا يشبهونه بخليل الله إبراهيم عليه السلام فى حلمه وخشوعه ووقاره وسكينته .

أى أنه يمتاز بصفات عظيمة كالتى كان يتحلى بها نبى الله إبراهيم عليه السلام .

ولقد كان الطابع الغالب عليه فى تبلغيه للدعوة الوعظ الممزوج بالقصة رغبة منه فى غرس المبادئ والقيم العليا التى يريد من سامعيه أن يتأسوا بها . يروون أن " على بن أبى طالب " كرَّم الله وجهه دخل مسجد البصرة باحثا عن القصاص الذين لا يتحرجون من ذكر القصص المثير بغض النظر عن طبيعة مصدره فوجد وسط أولئك القصاص حلقة قد كثر روادها وقد توسطهم شاب صغير وقور يتكلم فى موضوع وقد استطاع أن يمسك بزمام الحديث ويجمع أطرافه إلى درجة أنه لفت انتباه أمير المؤمنين فقال له يافتى إنى سائلك عن أمرين فإن أجبتنى عليهما إجابة مقنعة تركتك وشأنك تتحدث فى

---

(١) التصوف الإسلامى د. زكى مبارك جـ ٢ صـ ١١ .

الناس بما شاء الله لكوإلا لحقت بركب القصاص الذين طردوا مخافة الابتداع فى الديـن .

فقال " الحسن البصرى " سل يا أمير المؤمنين فقال " على " أخبرنى ماصلاح الدين وما فساده ؟

فقال : صلاحه الورع وفساده الطمع،فقال،صدقت تكلم فمثلك يصح أن يتكلم على الناس [١] وغير خاف أن إقرار على رضى الله عنه " بما لـه من صحبة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقدرة فائقة علـى فـرز الغـث من الثمـين معناه أن إمامة الوعظ قد انتهت إلى الحسن فيما يحدث أو ينقـل .

والذى لا جدال فيه أنه أحد أولئك الذين أعطوا للتصوف ـ وإن لـم يكن تحت هذا الاسم ـ سمات بارزة من أبرزها الزهد والفقـه .

يذكرون أنه سأل مرة عن مجرد لبس الصوف هل يكون دليلا على زهـد صاحبه فأجاب بأنه لابـد من التمييز بين الاحتراف وبين الزهـد الحقيقـى .

فالزاهد الحقيقى متواضع لبنى جنسه مراقب لله فيهم فإذا اعتراه الكبر والخيلاء والإعجاب بالنفس لا يكون زاهـدا .

---

(١) د / زكى مبارك ، التصوف الإسلامى صـ ١١ ٧ ط ٢ سنة ٣٨

ذلك أن شرط الزهد الحقيقى هو إخضاع النفس للخالق مع ترك حظوظ النفس كالرياء والغرور والعجب التى هى خصال المتعلقين بالدنيا . ومن ثم فإن المسألة ليست فى مظاهر اليأس وإنما هى قائمة على التواضع لله عز وجل . فإن مَنْ تواضع لله عز وجل زاده نورا يجد حلاوته فى قلبه (١) . ومن لبس الصوف للتكبر والخيلاء كور فى جهنم مع المردة . وبهذا الذى قرره من التواضع والزهد فى الدنيا مع العبادة المستمرة المقرونة بالخوف من الله عزوجل - تكون المعرفة المؤدية إلى الفقه فى الدين وبهذا ظهر على الساحة الفكرية معنى جديد للمحبة والزهد مع الخوف حيثلا يكون ذلك كله إلا بالفقه فليس الفقه هو إجراء الأحكام على ظواهرها التى هى الامتثال الظاهرى فى الأداء وإنما الفقه فقه لأحوال الباطن كما هو فقه لأحوال الظاهر وبهذا يكون الحسن البصرى قد عمق مفهوم الفقه . وأصبح علم الشريعة وعلم الحقيقة وجهين لمسمى واحد، وهكذا تحدد علم التصوف وظهرت حقيقته التى تميزه وتفصله عما عداه من العلوم الأخرى .

ومن هنا كتب الكاتبون فيه كتابة واضحة بعد أن أبان الحسن البصرى قواعده وأصوله ونظرياته .

---

(١) الطبقات الكبرى : للشعرانى صـ ٢٩ ط الجيل

يذكر صاحب اللمع أن الحسن عندما سأل عن العلاج الحاسم والدواء الناجع فى طريق الوصول إلى الله فأجاب إن أعظم شيء يعين السالك على بلوغ منيته هو " التفقه فى الدين فإن يصرف إليه ، قلوب المتعلمين والزهد فى الدنيا فإنه يقربك من رب العالمين ، والمعرفة بما لله عليك يحويه كمال الإيمان (٢)".

والإيمان إنما يبدأ بالقلب حيث يكون القلب فى حالة شعور دائم بالمعبود الأعظم وهذا الشعور إنما يحس به أولئك الذين زهدوا فى الدنيا وقطعوا العلائق الدنيوية حتى أصبحوا يسيرون وراء الغاية العظمى وهى معرفة الله عز وجل . ومن ثم كثرة حديثه عن القلوب بسبب أنها موضع الخوف والرجاء فلابد أن يخوفها حتى يتكون لديها هذا الشعور .

يروون أن الحسن البصرى دخل المسجد وقد اعتراه وجد حرك فيه المشاعر (فأخذ يتنفس نفسا شديدا وبكى حتى أرعد منكباه . ثم قال :

" لو أن بالقلوب حياة ، لو أن بالقلوب صلاحا لأبكتكم من ليلة طبيعتها يوم القيامة أن ليلة تمخض عن طبيعة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية ، ولا عين باكية من يوم القيامة) (١)

---

(١) صفة الصفوة ابن الجوزى جـ ٣ صـ ١٥٦

وهنا نتساءل عن سر ذلك الحزن المتواصل الذى لا يفارق الإمام الجليل ويمكن العثور على تحليل واف ودقيق إذا أمعنا النظر فيما تركه لنا من أقوال وأفعال كونت قواعد للسالكين إذ من الواضح أن مذهبه يقوم على الزهد فى الدنيا والاحتجاب عن بريقها وزخرفها، ذلك بالإضافة إلى تكوينه الشخصى .

فشخصيته ميالة بطبعها إلى الحزن وهذا يفسر لنا سر تفكيره فى الموت الذى يذكره بيوم يتطلع فيه الله على الخلائق وينبؤهم بما عملوا ، فيا له من موقف مروع للأفئدة محزن للقلوب .

وفى رأيه أن تذكر الموت يجعل العبد منخرطا فى سلك الطاعة بحيث لا تحلو له الدنيا التى هى فى الواقع متاع كاذب يخدع به الغر . أما الانسان الذى يداوم على التفكير فإن له حياة أخرى غير حياة أولئك السائرين فى غيهم المنشغلين بأمور مادية بحتة .

ولقد ظل الإمام الحسن البصرى مشغوفا بالمقارنة بين نتائج الحياتين :حياة فانية ، وحياة طابعها الخلود فى النعيم الأبدى الذى لا يحول ولا يزول . ولا شك أنه قد طرح على نفسه هذا السؤال أثناء سيره فى الطريق نحو قصده وغايته التى لا يفطر عنها

أى الحياتين خير مقاما وأحسن نديا ؟

وتأتى الإجابة واضحة لا غموض فيها. إنها حياة الركون إلى الله والاعتماد عليه ، والطمع فى رحمته والأمل فى مشاهدته بعين البصر هناك فى عالم لا يفزع فيه أحد ولا تروع فيه الخلائق فهو عالم الأمن والأمان وإن شئت فقل إنه عالم الحصول على نتائج الأعمال ولذا فإن على العاقل أن لا يضيع وقته فى مالا ينفع وأن يعمد إلى الأوامر التى أمرنا بها محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فينفذها تنفيذا متقناً وأن يتجنب النواهى التى نهانا عنها .

فإنه بهذا يؤكد أن الوسيلة الصحيحة فى نيل السعادة الأبدية إنما هى فى إتقان العمل وإحسانه مستشعرا بذلك حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) القائل :

" الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "

كما أن ذكر الموت يفسر لنا سر الخوف الدائم المستولى على كيان الحسن البصرى إذ أنه يقطع سبيل الرياء إلى نفس العبد . ويظهر هذا الملمح جليا فى إجابته على سؤال أحد مريديه الذى سأله: أى الطائفتين من العلماء أجدى نفعا ؟

العلماء الذين يخوفون الناس فى الوعظ أم الآخرون الذين لا يتخذون الخوف سبيلا لتحقيق الهدف ؟

فأجاب: (إنَّ مَنْ خوفك حتى تلقى الأَمْن خيرٌ مِمَّن أمنك حتى تلقى الخوف[١]).

ومن هنا فإن الطابع الذى غلب على شيخ التابعين هو البحث بالتنقيب عن الآيات التى تجعل القلوب خائفة وجلة ترجو الرحمة وتخاف العذاب وهى فى القرآن تَدِقّ على الحصر وعلى سبيل المثال فإنه قد توقف عند قوله تعالى :

" والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما [٢] .

نبين للناس أثناء وعظه أن المجتمع المؤمن لا يشغل وقته بالبحث فى الأمور الدنيوية البحتة وإنما هو مشغول بتحقيق الهدف الأسمى والمقصد الأعلى المتمثل فى طاعة الله عز وجل، ولذا فإنهم مشغولون بما يملأ نفوسهم من اهتمامات عليا .

ولا يلتفتون إلى الحمقى والسفهاء فهؤلاء هم الأخسرون أعمالا .

---

(١) الزهد ابن حنبل صـ ٢٥٩

(٢) قرآن كريم سورة الفرقان الآية رقم ٦٥ من سورة الفرقان

(للذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) (١)

تلك هى حياة المجتمع المؤمن أثناء النهار: عمل مستمر فى إصلاح المجتمع وتقويمه والترفع عن سفاسف الأمور ولا يحسبن أحد أن ليلهم استسلام للنوم وخلود للراحة. بل هو ليل عامر "بمراقبة الله والشعور بجلاله والخوف من عقابه .

فانظر إلى شعور المؤمن وهو يلقى بسمعه إلى تلك الآية ويقف أمامها لحظات متأملا فى معانيها - لا تسأل عما يحدث من حال الخوف والرجاء ..

يخاف العذاب ويرجو الرحمة مدركا أن كل غريم مفارق غريمه إلا غريم جهنم ، كما يطيل الوقوف عند قوله تعالى :

" وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين " (٢)

---

(١) قرآن كريم "سورة الكهف الآية رقم (١٠٤) "

(٢) قرآن كريم "سورة يونس الآية رقم (٦١) "

إذ يعمد إلى نفس سامعه فيهزها هزا عنيفا يثير فيها شعورا مخيفا مرهبا لائما للنفس على التقصير في الطاعة ، وكأنه يضع أمام مستمعه صورة الإنسان وقد جنحت به نفسه إلى شأن من شئونه ، ضاربا فيها بسهم وافر وقد ملك عليه كل حياته ولم يبق للتذكر والتدبر شيء ، وكل ذلك لم يقع في غفلة بل تحت مراقبة الله وفي معيته ..

كيف يكون شعور هذا العبد عندما يدرك تلك المعية حتى في حديث النجوى .

فكيف يكون حال هذا العبد عندما يحس بأن الله معه يعلمه ويشاهده ، فلابد والحالة هذه " أن يرتعش الوجدان إشفاقا ورهبة ، ويخشع القلب إجلالا وتقوى حتى يطمئن الإيمان من الروعة والرهبة ويهدأ القلب الواجف بأنس القرب من الله " (١)

هذه الحقائق الواردة في الآية التي عرضت لنا تلك الصورة صورة العباد وما يعتريهم من أحوال متضاربة فالله مع العباد حاضر بجلاله وبملائكته يشهد كل أعمال الناس ويعلم الخاطرات التي تهب على النفس .

---

(١) راجع في ظلال القرآن سيد قطب ص٤٠٨٠ المجلد الثالث .

هذه الصورة تجعل العبد يفكر قبل الإقدام على ما يغضب الله عز وجل الحاضر العليم ومن ثم يكون الخوف أساسا للعبادة وسبيلا للقرب من الملك الذى لا تلحقه الغفلة ولا تدركه السّنة .

وهكذا وقف الإمام الحسن مع القرآن متدبرا متفحصا لمعانيه خائفا من عذاب ربه راجيا رحمته بكثرة البكاء خوفا من أن يكون قد ألم به تقصير .

ومن ثم " غلب الخوف عليه حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده " (١) .

ولا سبيل إلى إشعال نار الندم على ما فات من تقصير إلا تدبر القرآن فذلك هو الذى يقطع الإنسان عن العلائق الدنيوية . ويربط الإنسان ربطا محكما بدار البقاء فيقسم بالله على أن العبد إذا قرأ القرآن ، ثم آمن به ليطولن فى الدنيا حزنه ، وليشتدن فى الدنيا خوفه ، وليكثرن فى الدنيا بكاؤه " (٢) .

وهكذا نستطيع أن نفسر منابع الزهد عند الحسن بالعامل النفسى فنفسه بطبعها ميالة باطراح الدنيا والزهد فيها . ولقد وجد طلبه فى القرآن عموما وفى الآيات الواردة فى التقليل من شأن الدنيا خصوصا وهذا فى حد ذاته أدى به إلى العامل الثانى

---

(١) الطبقات الكبرى الشعرانى ط ص ٢٩ (٢) الزهد ابن حنبل .

وهو التذكر الدائم للموت الذي هو النهاية الفعلية للمطاف في الدنيا مهما بدت في شكلها الخلاب وثوبها القشيب فمصيرها إلى الزوال تماما كالهشيم الذى تذروه الرياح .

ولذلك فإنه يعتبر الدنيا (مطية الإنسان إن ركبها حملته وإن ركبته قتلته)[1] .

وهذه النظرة إلى الدنيا جعلته مشتغلا بالأيام والليالي يرصدها على نفسه بداية من الدقائق تتلوها الساعات ترد فيها الشهور تتبعها السنوات ولقد وقف رضى الله عنه متأملا في انقضاء المدة التى يقضيها الإنسان على الأرض وفى النهاية المصيرية التى يلقاها الكائن الحى وفى مقدمة ذلك أن الإنسان المخلوق من الماء المهين ومع ذلك فهو خصيم مبين لربه وخالقه .

وإذا كان ذلك كذلك فإن الدنيا لاينبغى أن تكون هم المسلم وهمه الدائم بل يجب الزهد فيها والخوف من الاطمئنان بها والركون إلى رحمة الله فلا غرابة بعد ذلك في أن نجده رضى الله عنه خائفا وجلا حزينا .

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ط ص ٣٠ .

فإن المؤمن لابد أن يصبح حزينا ويمسى حزينا ولا يصلحه ذلك لأنه بين مخافتين ، بين ذنب قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه وبين اجل قد بقى لايدرى ما يصيب فيه من المهالك "

وعلى العاقل ألا يركن إلى هذه الدار التى لاتورث إلا البوار لأن كل ما فيها لايعد وأن يكون سرابا يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

فعلى العاقل أن يحذر هذه الدار " الصارعة الخادعة الخاتلة التى قد تزينت بخدعها وغرت بغرورها وقتلت أهلها بأيليها تشوفت لخطابها كالعروس المجلوة العيون إليها ناظرة والنفوس لها عاشقة والقلوب إليها والهة ولا لبابها دافعة وهى لأزواجها كلهم قاتلة فلا الباقى بالماضى معتبر ولا الآخر بما رأى من الأول مزدجر .

واللبيب بكثرة التجارب منتفع ، ولا العارف بالله والمصدق بالله حين أخبر عنها مدكر "(١) .

ونحن نعتبر أن هذا الإمام الجليل فاصلا بين عهد بن عهد كان فيه العباد يصرفون كل همهم إلى نشر دعوتهم فى إطار محدود

---

(١) الحلية لأبى نعيم جـ٢ ص ١٣ .

حسب طبيعة الشيخ الذى يعظ فالعباد يتلقون عنه يفعلون ما يفعل ويذرون ما يذر والهدف من ذلك هو محاولة تأديب النفس وتهذيبها

وعهدٌ كان فيه الحسن عالما يثب إليه الناس من كل صوب وحدب يستفتونه عن الطريق الذى يؤمن العثرات ويصل بالعبد إلى بلوغ المرام ، وفق لقواعد وأصول منهجية فكان بحق سيد البصرة بلا منازع ومرجعها فى علوم الذوق وظل كذلك زاهدا خائفا حتى وافته المنية سنة ١١٠ هجرية ،

* سعيد بن المسيب

وهذا نموذج آخر من التابعين هو أبو محمد سعيد بن المسيب ابن حزن المخزومى من كبار علماء المدينة وعبادها ونساكها الذين عرفوا بالسيطرة على كبح جماح النفس ، بالزهد فى الدنيا والنظر إلى ما عند الله من ثواب الآجلة ويكفى أن نشهد هذا بقول إمام جليل من أئمة الإسلام هو أحمد بن حنبل الذى يقول عن سعيد ابن المسيب أنه أفضل التابعين ، وتدليلا على ثقته به ومكانته عنده فقد كان يقبل الأحاديث المرسلة التى يرويها سعيد ويقول نحن نقبلها لأنها صدرت من سعيد ، وذلك لأنه كان يترك كل طاقته المتاحة فى التعرف على قوة الحديث وروايته فقد كان يسير متنقلا إلى شيخ يسمع أنه روى حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيمشى إليه أياما وليالى غير ناظر الى مدى الجهد والعناء الذى سيبذله .

إن عالما يبذل هذا الجهد ويبلغ هذه المنزلة عند ابن حنبل لجدير أن نتوقف عنده قليلا مع آرائه فى طريقة العبادة وفى رأيه فى الزهد ، وفى موقفه من المفاهيم المستقرة الثابتة عنده ، والذى يظهر من دراسة هذا الإمام الجليل أنه كان صديقا لابن عمر تربط

بينهما صفة مشتركة هى كلمة الحق ، ولقد ظهر ذلك جيداً فى موقفه من المتنافسين على الإمارة حيث يذكر التاريخ أنه رفض البيعة للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان برغم محاولاته الكثيرة فى أخذ البيعة منه وذهب فى هذا إلى حد أن خطب ابنته لابنه الوليد ولكنه لم تأخذه زخارف الحياة الدنيا وبماهجها وكان من نتيجة رفض البيعة والتزويج أنْ ضُرِب ضرباً مبرحاً حتى لم يعد يقوى على الوقوف على قدميه ولكن الحق مستقر فى قلبه ، والمفهوم ثابت فى وجدانه ، ومن ثم فإن كل صنوف الأذى لم تستطع أن تزحزح سعيداً عن الحق الذى يراه ، ومن هذا المنطلق رفض البيعة للوليد [1] ، كما رفض أن يزوجه ابنته ولم يعبأ بكل ما عند الوليد من دنيا يعتبر نفسه غريباً عنها زاهداً فيها ، لما فيها من ظلم ، وإن أصعب شىء على النفس أن يرى الإنسان الظلم ولا يستطيع دفعه ، وأعظم منه أن يتمثل الظلم فى الولاة حين يعمدون إلى سلب الحقوق وقهر النفوس وقد كان من الممكن أن يوافق على ما يريد الحاكم لولا أنه صاحب مبدأ يقول : "الناس أحرار فى سلوكهم ماداموا لا يتجاوزون حداً من حدود الله ومن ثم فإن السعادة فى الزواج ليست فى غنى مطغ بل فى الشعور بالراحة وهدوء النفس واطمئنان البال" .

---

(١) طبقات ابن سعد ص ١٣٢ جـ ٥ .

ولقد طبق هذا المبدأ تطبيقاً عملياً حينما أراد أن يزوج ابنته من تلميذ له عرف بين الناس بالفقر لكنهم كانوا يصفونه بالتعبد والتنسك يقول ابن أبى وداعة قال كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدنى أياماً فلما جئته قال: أين كنت ؟ قال توفيت أهلى فاشتغلت بها . فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها ، قال ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت يرحمك الله ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال: أنا ، فقلت أَو تفعل ؟ قال: نعم، ثم حمد الله تعالى وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم .. وزوجنى على درهمين أو قال ثلاثة قال: فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح وجعلت أتفكر ممن آخذ وممن أستدين فصليت إلى منزلى واسترحت وكنت وحدى صائماً فتناولت إفطارى وكان خبزاً وزيتاً ، فإذا بآت يقرع فقلت من هذا، قال: سعيد قال : ففكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد فقمت فخرجت فإذا سعيد ابن المسيب فظننت أنه قد بدا له فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إلىَّ فآتيك فقال: لأنت أحق أن تؤتى قال قلت: فما تأمر قال : إنك كنت رجلا عزباً فتزوجْتَ فكرهت أن تبيت الليلة وحدك وهذه امرأتك، فإذا هى قائمة من خلفه فى طوله ، ثم أخذها بيدها فدفعها بالباب ورد الباب فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقتُ من الباب ثم وأريت القصعة التى فيها الزيت والخبز لكى لا تراها ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران

فجاؤونى فقالوا ما شأنك قلت : ويحكم زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها على غفلة ، فقالوا: سعيد بن المسيب زوجك قلت نعم ، وها هى فى الدار قال فنزلوا هم إليها ، وبلغ أمى فجاءت وقالت : وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام : قال فأقمت ثلاثة ثم دخلتُ بها فإذا هى أجمل الناس وإذا هى أحفظ الناس لكتاب الله وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج ، قال فمكثت شهرا لا يأتينى سعيد ولا آتيه فلما كان قرب الشهر أتيت سعيدا وهو فى حلقته فسلمت عليه فرد علىَّ السلام ولم يكلمنى حتى تقوض أهل المجلس فلما لم يبق غيرى ، قال ما حال ذلك الإنسان قلت خيرا يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو ثم قال سعيد يا عبد الله إن خف عليك أن تزورنا فافعل (١) .

فانظر إلى هذه القصة التى عرضت نفسية سعيد تلك النفسية الزاهدة التى لم يدخلها الطمع فى متع الحياة وقد كان العرض أمامه سخيا يحول الفقير إلى رجل من أصحاب رؤوس الأموال فى رقعة واسعة مترامية الأطراف لو أن موازينه كانت كموازين الدنيا ، لكنه ينظر إلى ما عند الله من خير ، ويعتقد يقينا أن الميزان الصادق

---

(١) الحلية لأبى نعيم ص١٦٨ .

هو ما وزن به القرآن الناس (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[١].

وهو فى هذا مثل يُحتذى وقدوة فى التقوى والنبل والفضل وأنعم بها من صفات تكون الرجال وتربى القيادات وهو كذلك منار يهتدى به السالكون إلى مدارج رب العالمين وهذا العلم الذى رزقه سعيد بن المسيب يعود فى المقام الأول إلى أنه تلقى عن كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاسيما ابن عمر الذى قال عنه (لو رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ هذا لسره ـ مشيرًا إلى سعيد[٢].

وهذا القول فى حد ذاته يعطينا المكانة العليا التى كانت فى نفس ابن عمر لهذا الإمام الجليل يقول الزهرى فى بيان شيوخه الذين أخذ عنهم من الرجال والنساء عندما سئل عمن أَخَذ سعيد بن المسيب علمه ؟ قال : عن زيد بن ثابت ، وجالس سعد ابن أبى وقاص ، وابن عباس وابن عمر ودخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ـ عائشة وأم سلمه وكان قد سمع من عثمان ابن عفان وعلىّ وصهيب ، ومحمد بن سلمة .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ص ١٢٢ جـ ٥ .

وإذا كان قد تلقى عن هؤلاء المذكورين فإن أبا هريرة قد ألفه وأنس إليه منذ كان شابا فى ريعان الصبا فنشأت بينهما مودة على مائدة السنة التى كان فيها أبو هريرة شيخا لاحديث له إلا الحديث عمن سمع وشهد وعاين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شك كذلك فى أن أبا هريرة قد أحس بأن سعيداً قد فتح صحائف قلبه كلفاً بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم محبا له مداوماً غير مفارق فنمت هذه العلاقة فى هذا الإطار حتى انتهت بتزويجه سعيدا من ابنته ولا يعنينا أى الرجلين قد عرض على الآخر الزواج وإنما الذى يعنينا هو علاقة سعيد بأبى هريرة ذلك الصحابى الجليل الواسع النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك العلاقة التى توجت بالمصاهرة وزفاف ابنة ذلك الصحابى الجليل إلى سعيد دونما هرج كالذى اعتاده الناس فى أفراحهم ولا غرو فقد نشأت فى محضن إسلامى صرف فقد كانت مزودة بقدر وافر مما أدبها به أبوها مما كان يقصه عليها من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى الأقوال والأفعال وما يردد على سمعها من قرآن وسنة ، ولا شك أنه رصيد هائل قد حواه قلبها ووعاه سمعها .

وقد انتقلت بهذا الرصيد إلى بيت الزوجية فعاشت عيشة هنيئة فى معية ذلك العالم التقى الورع العابد الزاهد ولم تخرج

فى حياتها من البيت إلا اضطرارا حيث خرجت إلى ابنتها لتساعدها فى استقبال مولودها التى كانت تضعه لأول مرة ويروى لنا عبدالله ابن أبى وداعة زوج ابنة سعيد يقول رجعت إلى الدار وإذا بها شخص ما رأيته قط فرجعت موليا فنادتنى من ورائى يا عبدالله ادخل لقد أحل الله لك هذه النظرة فقلت ومن أنت يرحمك الله قالت أنا أم العروس يا عبدالله ، كيف رأيت أهلك؟ قلت جزاكم الله من أهل بيت خيرًا .. لقد ربيتم فأحسنتم وأدبتم فأحكمتم فقالت : ياعبدالله لايمنعك مكانتها من أن ترى بعض ما تكره فتحسن أدبها ... بارك الله لكما فى المولود وجعله مباركا خائفا لله ، ووقاه الشيطان وجعله شبيها بجده سعيد فوالله إنى لزوجه منذ أربعين سنة ما رأيته عصى الله تعالى قط ثم خرجت فلم أرها وجها ثمانى عشرة سنة حتى قضى عليها الموت" (١)

وهكذا كانت الأسرة ، الزوج وهو سعيد والزوجة بنت أبى هريرة فلاعجب أن تكون العروس التى تربت فى هذه البيئة المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو ما رأينا من سلوك أمها وتعلق أبيها بالإسلام وعمده إلى الاتصال بل إلى الانتساب إلى همزات الوصل بين النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه من أمثال أبى

---

(١) إمام التابعين سعيد بن المسيب للإمام عبدالحليم محمود ص٢٤، ٢٥ ط دار الدعوة .

أبي هريرة وابن عمر وغيرهما من أصحاب النبي الكريم .

يروون عن ابنة سعيد أنها كانت عالمة فقيهة قادرة على التصرف في المسائل التي يكل منها الفقهاء ويعجزون عنها .

يقول زوجها عن ذلك (لقد كانت المسألة المعضلة تعيى الفقهاء فأسألها عنها فأجد عندها منها علما "

وبالطبع فإن ذلك ليس مستغربا من ابنة شيخ التابعين وأحد أعلامهم الذين نافحوا عن المبادئ والمثل العليا التي عرفها الإسلام وكان فيما يقول ويروى ثقة ، حجة ، فقيها رفيع الشأن قيادة في الأصول والفروع لا يفصل أبدا بين القول والعمل ، ويقرن النظرية بالتطبيق ويعتقد أن أرقى أنواع التكريم للعبد هو انخراطه في سلك الطاعة فما (أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عز وجل ، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله وكفى بالمؤمن نصره من الله أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله [1] .

ومن أقواله الكاشفة عن حبه لمولاه وخضوعه له وانقياده إليه

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ص١٣٧ جـ٥ .

قوله :

" الناس كلهم تحت كنف الله يعملون أعمالهم فإذا أراد الله عز وجل فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه فبدت للناس عورته " (١)

الذى نريد أن نقوله هنا إن سعيد بن المسيب كان وليدا لبيئته المسلمة وابنها البار ولسانها المعبر عنها فى كل ما يتصل بالزهد والعمل فقد ربته السُّنَّة .

فإن كل من داخلت نفوسهم محبة السنة النبوية صلوات الله وسلامه على صاحبها كانوا أمثلة يقتدى بها فى الخلق الكريم فواقع الأمر أن السنة قد ربت رجالا تولوا قيادة الأمة لما حفظوه من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشهد التاريخ أنهم كانوا منارات تضىء الظلمة للسالكين وترفع الحيرة عن قلوب الذين يجعلون ربهم هدفا وغاية ، وسعيد بن المسيب من أولئك الذين وهبوا أنفسهم وأبدانهم لله ، وقد استعذبوا العذاب حتى أصبح لديهم عذبا فلم يعد يثنيهم عن عزمهم قوة باطشة أو عدة بعطاء ، فهم يعتقدون أن مصير الدنيا إلى زوال وما دام الأمر كذلك فإن موت النفس أهون

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ص١٣٧ جـ٥ .

من موت ذبابة ، ثم تتابعت الأيام مرورا بالشهور والسنين منتقلا فيها من طور إلى طور كان فيها متعلما ثم عالما ومعلما يبذل النصح للخاصة والعامة على حد سواء لايخاف فى الله لومة لائم ولا يقبل فيه عذر معتذر إن تعلق الأمر بأصول الإيمان ، فما كان فى الشدائد إلا ثابتا وما كان للموت إلا مُرَحِّبا لأنه يريد أن يلقى الله بلا ضوضاء أو جلبة.يقول رضى الله عنه موجها الحديث إلى أهله وذوى قرابته :

"إذا مامت فلا تضربوا على قبرى فسطاطا ولا يحملونى على قطيفة حمراء ولاتتبعونى بنار ولاتؤذوا بى أحدًا حسبى من يبلغنى ربى ولا يتبعنى زاجرهم هذا "

يقول صاحب شذرات الذهب إنه فى سنة أربع وتسعين توفى الإمام السيد الجليل أبو محمد سعيد بن المسيب رحمه الله رحمة واسعة .

الفصل الخامس

ألفاظ الصوفية واصطلاحاتهم

* ألفاظ الصوفية *

للصوفية لغة في التخاطب ولقد اختاروا لها ألفاظاً اصطلحوا عليها لا يشاركهم فيها غيرهم بل ولا تضبطها اللغة والقاعدة التي يبنى عليها هذا الفهم بأسرة، فذلك اجتذاب أرواح المعارف بإشارة إلى البعد في القرب، وقصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى، وقصداً ذاتياً لا على ما سلكه أرباب علوم الظاهر، ثم التصديق بالقوة والنظر إلى الملكوت من كوة، ومعرفة العلوم في الإشراق ومصاحبة القدر بالمساعدة، وبالمعروف ومعاطاة الموجودات الخمس، الذاتي، والحسي، والخيالي، والعقلي، والشبهي حسبما فهم من الشرع وثبت معناه في المحفوظ من الوحي، وبلا أدرك شئ من العجز، والعلم لا ينال براحة الجسم.

ومن هذه الألفاظ :-

الحال :- منزلة العبد في الحين فيصفو له في الوقت حاله ووقته وقيل هو ما يتحول فيه العبد، ويتغير مما يرد عليه قلبه، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال، وقال بعضهم الحال لا يزول فإذا زال لم يكن حالاً *

المقام :- هو الذي به العبد في الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات، فمتى أقيم العبد بشئ منها على التمام والكمال فهو مقامه، حتى ينتقل منه إلى غيره *

الشطح :- كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه، مقرون بالدعوى إلا أن يكون صاحبه محفوظاً *

* السر : ما خفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق ، وسر السر ما لا يحس به السر ، والسر ثلاثة ، سر العلم ، وسر الحال ، وسر الحقيقة ، فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل ، وسر الحال معرفة مراد الله في الحال مع الله ، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة *

* الوصل : إدراك الفائت *

* الأدب : ثلاثة : أدب شريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة . والثاني : أدب الخدمة وهو التشمر عن العلاقات والتجرد من الملاحظات . والثالث : أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة *

* الرياضة : اثنان . رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس ، ورياضة الطلب وهو صحة المراد *

* التحلي : التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال *

* التخلي : اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق *

* التجلي : هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب *

* المكاشفة : أتم من المشاهدة وهي ثلاثة ، مكاشفة بالعلم : وهي تحقيق الإصابة بالفهم ومكاشفة بالحال : وهي تحقيق رؤية زيادة الحال ، ومكاشفة بالتوحيد : وهي تحقيق صحة الإشارة *

* المشاهدة : ثلاثة : مشاهدة بالحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، ومشاهدة للحق وهي رؤية الحق في الأشياء ، ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب *

* اللوائح : ما يلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمو من حالة

الى حالة أتم منها ، والارتقاء من درجة الى ما هو أعلى منها *

* التلوين : تلوين العبد فى أحواله ، وقالت طائفة : علامة الحقيقة رفع التلوين بظهور الاستقامة ، وقال آخرون : علامة الحقيقة التلوين لأنه يظهر فيه قدرة القادر ، فيكسب منه العبد الغيرة *

* الغيرة : غيرة فى الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق ، فالغيرة فى الحق رؤية الفواحش والمناهى ، والغيرة على الحق هى كتمان السرائر ، والغيرة من الحق ضنه على أوليائه *

* الحرية : اقامة حقوق العبودية فتكون لله عبداً وعند غيره حراً *

* اللطيفة : إشارة دقيقة المعنى تلوح فى الفهم ولا يسعها العبارة *

* الفتوح : ثلاثة . فتوح العبادة فى الظاهر : وذلك بسبب إخلاص القصد وفتوح الحلاوة فى الباطن : وهو بسبب جذب الحق بإعطائه ، وفتوح المكاشفة وهو بسبب المعرفة بالحق *

* البسط : عبارة عن حال الرجاء *

* القبض : عبارة عن حال الخوف *

* المريد : هو الذى صح له الابتداء ، ودخل فى جملة المنقطعين الى الله عز وجل بالاسم *

* المراد : وهو العارف الذى لم يبق له إرادة وقد وصل الى النهاية وعبر الأحوال والمقامات *

* الوجد : مصادفة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده *

* الوجود : تمام وجد الواجدين وهو اسم الوجد عندهم ، وسئل بعضهم عن الوجد والوجود فقال : الوجد ما تطلبه فتجده بكسبك واجتهادك والوجود ما تجده من الله الكريم ، والوجد عدم غير تمكن والوجود مع التمكن *

* * * *

الفصل السادس

نصوص فى التصوف

* السفر الأول *

* من كتاب الصدق *

للشيخ أحمد بن عيسى « أبي سعيد الخراز »

باب : الصدق في الزهد

ثم الصدق في الزهد ، كيف هو ؟ وما هو ؟ ولقد فضح الله تعالى الدنيا وسماها بأسماء لم يسمها أحد ، فقال تبارك وتعالى « إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم »⁽¹⁾ الآية أفلا يستحي من يعقل عن الله تعالى أن يراه ساكنا الى اللهو واللعب في دار الغرور ؟

قلت : الدنيا في نفسها ما هي ؟.

قال : اتفق البصراء من الحكماء أن الدنيا هي النفس وما هويت ، والحجة في ذلك أن الله عز وجل قال : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا »⁽²⁾. فهذه الأمور التي ذكرها الله عز وجل هي من هوى النفس

(1) سورة الحديد الآية ٢٠ ك ٢٩.

(2) سورة آل عمران الآية ١٤.

ولذاتها، وبها تلهو عن الآخرة وذكرها. فإذا ترك العبد ما تهواه النفس ترك الدنيا، ألا ترى أن العبد قد يكون فقيرًا لا شئ له وهو يشتهي الدنيا، ويهوى جناها، ولينوى أن لو أمكنه منها ما يريد التمتع بذلك ونال لذته، فهو عند الله تعالى من الراغبين على قصور همته إلا أنه أقل حسابًا ممن نالها واستمتع بها.

فأول درجات الزهد، هو الزهد في اتباع هوى النفس فإذا هانت على المرء نفسه لم يبال على أى شئ أمسى وأصبح إذا وافق محبة الله تعالى عند ذلك على مخالفة نفسه، ومنعها من محبوبها من الشهوات واللذات والراحات، ومفارقة الأحباء والأخوان والأصحاب من أهل الغفلة إلا من كان منهم عونًا على ذلك الأمر الذي يريده العبد، فإن آفة العبد صحبة من يريد ما يريد، ثم أخذ البلغة من الطعام والشراب واللباس والمنزل والنوم والكلام والنطق والاستمتاع، وترك التمنى من الدنيا والحزن من تلفها، لأن النبي صلى الله عليه وسلم - قال: «الدنيا خضرة حلوة» فيتوهم العبد فقدها فيقصر فيها أمله مع توقع الموت، والشوق إلى الآخرة والشوق الى النزول في دار بقائها والعمل في ذلك، ولذلك يخلع الراحة من القلب بدوام الفكرة ومن البدن بدوام الخدمة، فهذا أول درجات الزهد.

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى، ووكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل، وغيرهم رحمهم الله: ان الزهد في الدنيا قصر الآمال، وهذا

يدل على ما قالت الحكماء لأنه من قصر أمله لم يتعم، وكانت الغفلة منه بعيدة، وقالت طائفة من الناس: الزاهد في الدنيا هو الراغب في الآخرة الذي قد جعلها نصب عينه كأنه يرى عقابها وثوابها، فهو عازف عن الدنيا، وهكذا يروى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لحارثة: «كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: مؤمنًا حقا يا رسول الله، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: وما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي، وكأني أنظر الى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر الى أهل الجنة يتنا عمون، والى أهل النار يتعاوون، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - مؤمن نور الله قلبه، عرفت فالزم».

وقال بعض العلماء: الزهد خروج قيمة الأشياء من القلب والزهد في الدنيا يدق جدًا ويخفى ولكل عبد على قدر علمه بالله تعالى زهد، فمن نفى الرغبة في الدنيا من قلبه شيئا بعد شيء حتى يرى غاية الزهد، ومن توانى عنه نفسه ولم يخالفها عند هواها لم يعزف عن الدنيا ولم يشرف على الآخرة، قال بعض العلماء: الزاهد في الدنيا حقًا لا يذم الدنيا ولا يمدحها، ولا يفرح بها اذا أقبلت، ولا يحزن عليها اذا أدبرت. قال ابو سعيد رحمه الله تعالى: قال بعض البدلاء رحمهم الله تعالى: لا يكون زاهدًا مستكمل الزهد أو يستوي عنده الحجارة والذهب ولا يستوي الحجارة والذهب حتى يكون معه من الله تعالى آية، فتحول الحجارة ذهبًا، فعندنا يخرج قيمة الأشياء من قلبه، وسمعته

يقول: لم يستو الحجارة والذهب عند أحد من الصحابة رضي الله عنهم بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أبي بكر رضي الله عنه.

قلت: فعلى أي معنى زهد الزاهدون؟ قال: معان شتى فمنهم من زهد لفراغ القلب من الشغل، وجعل همه كله في طاعة الله تعالى وذكره وخدمته فكفاه الله عند ذلك، فهكذا روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «من جعل الهم هما واحدا كفاه الله سائر الهموم» وقال عيسى عليه السلام: «بحق أقول لكم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وفي المال داء كبير قالوا: ياروح الله ما داؤه؟ قال: لا يعطى حقه، قالوا: فإن أعطى حقه؟ قال: يكون فيه فخر وخيلاء، قالوا: فإن لم يكن فيه فخر ولا خيلاء؟ قال: يشغل إصلاحه عن ذكر الله» ومنهم من زهد لخفة الظهر وسرعة الممر على الصراط إذا حبس أصحاب الأثقال للسؤال، فهكذا روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «عرض علي أصحابي ففقدت عبد الرحمن بن عوف، أو قال احتبس علي، فقلت: ما بطأك علي؟ قال: لم أزل أحاسب بعدك بكثرة مالي حتى جرى مني من العرق ما لو وردت عليه سبعون من الإبل عطاش قد أكلت حمضا لصدرت عنه رواء» وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من غير طريق أنه قال: «الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا، هكذا عن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه بين عباد الله، قال - صلى الله عليه وسلم - وما من غني ولا فقير إلا ود يوم

القيامة أن الله كان جعل رزقه في الدنيا قوتا ، وروى أبو ذر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال «ما يسرني أن لي مثل أُحد ذهباً أنفقه في سبيل الله تعالى تأتي على الثالثة يكون منه عندي شيء إلا ديناراً أُرصده لدين» ، ومنهم من زهد رغبة في الجنة واشتياقاً إليها فخلى عن الدنيا وعن لذاتها حتى مال به الشوق إلى ثواب الله تعالى الذي دعاه إليه ووصفه له عز وجل ، وروي في الحديث «أن الله جل ذكره يقول : وأما الزاهدون في الدنيا فإني أبيحهم الجنة» وقال بعض العلماء : لا تحسن قراءة إلا بزهد .

وأعلى درجات الذين زهدوا في الدنيا هم الذين وافقوا الله تعالى في محبته فكانوا عبيداً عقلاء عن الله عز وجل أكياساً محبين سمعوا الله جل ثناؤه ذم الدنيا ، ووضع من قدرها ولم يرضها داراً لأوليائه ، استحيوا من الله عز وجل أن يراهم راكنين إلى شيء ذمه ولم يرضه ، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضاً لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله في محبته كرماً ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، فأهل الموافقة لله تعالى في الزهد هم أعقل العبيد وأرفعهم عند الله قدراً ، وكذا روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال . يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم كيف غبنوا سهر الحمقى وصيامهم ، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أوزن عند الله من أمثال الجبال من أعمال المغترين وفي هذا بلاغ لمن عقل عن الله عز وجل وبالله التوفيق .

وروى عن عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - أنه نظر الى شاب مصفر فقال له ما هذا الصفار يا غلام؟ قال: اسقام وامراض يا أمير المؤمنين. قال: لتصدقني قال: اسقام وأمراض، قال لتخبرني، قال: يا أمير المؤمنين عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني انظر الى أهل الجنة في الجنة يتزاورون وأهل النار في النار يتعاوون. فقال عمر: أنى لك هذا يا غلام؟ قال: اتق الله يفرغ عليك العلم افراغاً، إنه لما قصر بنا عن علم ما جهلنا تركنا العمل بما علمنا ولو عملنا ببعض ما علمنا لورثنا علماً لا تقوم له ابداننا.

وروى عن ابي بكر الصديق - رضى الله عنه - أنه استسقى فأتى بإناء فلما قربه الى فيه وذاقه نحاه ثم بكى فقيل له في ذلك، فقال رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أراك تدفع بيديك ولا أرى شيئاً فقال: نعم، تلك الدنيا تمثلت لي في زينتها فقلت: اليك عني، فقالت: ان تنج مني فلن ينجو مني من بعدك. قال أبو بكر - رضى الله عنه - فأخاف أن تكون قد أدركتني قال: وكان في الإناء الذي شرب أبو بكر - رضى الله عنه - منه ماء وعسل، فبكى اشفاقاً من ذلك.

ويروى في بعض الحديث أن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يأكلوا تلذذاً ولم يلبسوا تنعماً وفي رواية: أن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - استعوا في الدنيا من بعده حين فتحت عليهم من حلها أنهم بكوا من ذلك واشفقوا وقالوا: نخاف أن تكون عجلت لنا حسناتنا، فليتق الله عبد ولينصف من نفسه وليلزم منهاج من مضى وليعترف بالتقصير ويسأل الله الإقالة *

* النص الثالث *

* من كتاب قوت القلوب *

للشيخ محمد بن علي أبي طالب المكي «٣٨٦ هـ»

* فصل آخر *

لأن الرغبة في الهوى حقيقة الدنيا، وإن كان العبد زاهداً في المال من قبل أنه يعطى الزهد في شيء دون شيء، كما يزهد في الثناء ولا يزهد في المال، ولا يعطى الزهد في الأطعمة وقد يعطى الزهد في المال، ولا يعطى الزهد في منصبه لغلبة الهوى فإذا أعطى الزهد في الهوى كائناً ما كان فقد أعطى حقيقة الزهد في الدنيا وهذا هو الزهد في النفس، لأن النفس عين الرغبة والهوى روح النفس فاعرف هذا، وكان يونس بن ميسرة الجيلاني يقول: «ليست[1] الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يديك وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون ذامك ومادحك في الحق سواء، وقال سلام بن أبي مطيع رحمهما الله: الزهد على ثلاثة أوجه: واحد أن تخلص العمل لله عز وجل والقول فلا يراد بشيء منه الدنيا، والثاني ترك ما لا يصلح والعمل بما يصلح، والثالث الحلال أن يزهد فيه وهو تطوع، وكان إماماً في هذا العلم إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول: الزهد ثلاثة أصناف: زهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة، فالزهد الفرض في الحرام، والفضل في الحلال والسلامة الزهد في الشبهات.

---

(١) في الأصل: ليس

وأما أيوب السختياني رحمه الله فكان يقول : الزهد أن يقعد أحدكم في منزله فإن كان قعوده لله تعالى رضا وإلا خرج وأن يخرج فإن كان خروجه لله تعالى رضا وإلا رجع ، فإن رجوعه لله رضا وإلا حبسه فإن كان حبسه لله تعالى رضا وإلا رمى به ، ويتكلم فإن كان كلامه لله تعالى رضا وإلا سكت فإن أخراجه لله رضا وإلا حبسه ويحبسه فإن كان حبسه لله تعالى رضا وإلا رمى به ويتكلم فإن كان كلامه لله تعالى رضا وإلا سكت فإن كان سكوته لله تعالى رضا وإلا تكلم فقيل هذا صعب فقال : هذا الطريق الى الله عز وجل ، وإلا فلا تلعبوا فقد ذهب الى أن الزهد هو المراقبة والمراقبة هي الإخلاص .

وسئل حاتم الأصم صاحب شقيق البلخي رحمهما الله تعالى - عن الزهد فقال : أوله الثقة وأوسطه الصبر وآخره الإخلاص ، فإذا كان الاخلاص عندهم هو آخر الزهد فكيف يصح لعبد آخر الزهد قبل أوله ؟ أم كيف يجاوز الإخلاص الى مقامات المعرفة ؟ فقد صار آخر الزهد عندهم أول المعرفة .

وذهبت طائفة الى أن الزهد في الدنيا فريضة على المؤمنين لأن حقيقة الإخلاص على الزهد[١] عندهم فأوجبوه من حيث أوجبوا على المؤمنين الإخلاص ، ومال الى هذا القول ابراهيم بن أدهم الأسود ، وقد روينا معناه عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، قيل لأحمد : بأي شيء ذكر القوم وصاروا أئمة ؟ فقال : بالصدق فقالوا : وما الصدق ؟

---

١١ في الأصل : هو الزهد

قال : الإخلاص : قيل وما الإخلاص ؟ قال هو الزهد قيل : وما الزهد يا أبا عبد الله ؟ فأطرق ثم قال سلوا الزهاد ، سلوا بشر بن الحارث .

وقال قوم : الزهد في الدنيا طلب الحلال وأنه واجب مفترض في مثل زماننا هذا لاختلاط الأشياء وغلبة الشبهات قالوا : فقد تعين فرض الزهد ، وهذا إبراهيم بن أدهم ووهيب بن الورد وسليمان الخواص وجماعة من أهل الشام .

وقد كان سهل يقول : أزهد الناس في الدنيا أصفاهم مطعماً ، وقال : أقصى مقام في الورع أدنى مقام من الزهد .

وقد روينا عن يوسف بن أسباط ووكيع رحمهما الله قالا : لو زهد عبد في زماننا هذا حتى يكون كأبي الدرداء ما سميناه زاهداً لأن الزهد عندنا إنما هو في الحلال المحض ولا نعرف الحلال المحض اليوم ، وكذلك كان الحسن البصري رحمه الله إمام الأئمة يقول : لا شيء أفضل من رفض الدنيا .

قال الفضل بن ثور ، قلت للحسن : يا أبا سعيد ، رجلان يطلب أحدهما الدنيا بحلالها فأصابها فوصل بها رحمه وقدم فيها لنفسه ، ورجل رفض الدنيا ، قال أحبهما إلى الذي رفض الدنيا ، قلت : يا أبا سعيد هذا المطلب لحلالها فوصل بها رحمه وقدم فيها لنفسه ؟ قال أحبهما إلى الذي جانب الدنيا وإنما شرف الحسن الذي رفض الدنيا لأن مقام الزهد يجمع التوكل والرضا والإشارة إلى الخبر الذي جاء : " الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك " فهذا هو التوكل ثم قال : " وأن تكون بثواب المصيبة أفرح منك لو أنها بقيت لك " وهذا هو الرضا ، ثم المعرفة

والمحبة بعد الزهد داخلان عليه، فأي مقام أعلى من مقام جمع هذه الأربعة وهي غاية الطالبين، ولعمري إنه كذلك لأنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما حديث فيه شدة قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلائق فيقال: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله تعالى من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم تقذف في جهنم فتنادي: أي رب: أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً أشد من هذا، حدثنا عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار قالوا: يا رسول الله مصلين؟ قال: نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه.

وكذلك كان الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله يقول: إنما الزهد اسقاط قيمة الدنيا من القلب وأن لا يكون لشيء عاجل في القلب وزن، فإذا استقطت قيم الأشياء واستوت في القلب فهو الزهد.

فأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فإنه كان يقول: ليس الزاهد من لا يملك شيئاً، إنما الزاهد من لا يملكه شيء. وقال عالم مثله في معناه: الزاهد من لا يتملك الأشياء ولم يسكن إليها، وكان يقول: الزاهد قوته ما وجد، وثوبه ما ستر

وبيته ما آواه وحاله وقته .

وقال بعض العارفين : الزهد إنما هو ترك التدبير والاختيار ، والرضا والتسليم ، لاختياره شدة كان أو رخاء ، وهذا هو زهد الخواص والثوري وذي النون رحمهم الله تعالى .

وقال أبو يزيد رحمه الله مرة : إنما الزاهد من لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء وقال : حقيقة الزهد لا يكون إلا عند ظهور القدرة ، والعاجز لا يصح زهده هو أن يعطيه كن ويطلعه على الاسم والقدرة على الأشياء بإظهار الكون فيزهد في ذلك حياء من الله تعالى ويتركه حباله ، وكان يستعيذ بالله من أربعة وعشرين مقاماً من إظهار القدرة ، وقال لأبي موسى عبد الرحيم : في أي شيء تتكلم ؟ قلت في الزهد . قال : في أي شيء قلت ؟ قلت في الدنيا . قال فنفض يده وقال : ظننت أنه يتكلم في الزهد في شيء ، الدنيا لا شيء . تزهد فيه .

وذهب إلى هذا المعنى سهل وغيره وقال : سبعة عشر مقاماً في المعرفة أدناها المشي على الماء وفي الهواء وظهور كنوز الأرض وهذا كله من زخرف الدنيا .

وقد حكى لنا معنى هذا عن الجنيد قال : اجتمع أربعة من الأبدال في جامع المنصور ليلة العيد فلما أسحروا قال أحدكم أما أنا فقد نويت أن أصلي العيد في بيت المقدس . وقال الآخر أما أنا فقد نويت أن أصلي العيد بطرسوس ، وقال الثالث أما أنا فقد نويت أن أصلي العيد بمكة ، وسكت الرابع وكان أعرفهم . فقيل له : أنت أي شيء نويت ؟ فقال أما أنا فقد نويت اليوم ترك الشهوات

لا أصلي إلا في هذا المسجد الذي بت فيه، فقالوا: أنت أعلمنا فقعدوا عنده فصار عند هؤلاء كما ذكرناه آنفاً أن هذه الأبيات هي من الشهوات إذ ليست حاجات مقامات والشهوة من الدنيا لأنها من الهوى وأيضاً ففيها تدبير واختيار وعند الزهاد العارفين والحبيبين أن هذا مكر وخداع يبتلون به ويقطعون لينظر كيف يعملون إذ ابتلاء كل عبد على قدر مرتبته وحاله فيلزمه الزهد فيه؛

ويقال: هي في المقام السابع عشر من المعرفة فمن سلك به الطريق رآها فيه وفوقها نيف وسبعون مقاماً أفضل من ذلك .

وقد سئل الجنيد عن الزهد فقال: معنيان، ظاهر وباطن فالظاهر بغض ما في الأيدي من الأملاك وترك طلب المفقود، والباطن زوال الرغبة عن القلب ووجود العزوف والانصراف عن ذكر ذلك وإذا تحقق بذلك رزقه الله تعالى الإشراق على الآخرة والنظر إليها بقلبه فحينئذ يجد في العمل لتقصير الأمل وتقريب الأجل لأن الأسباب عن قلبه منقطعة والقلب منفرد بالآخرة، وحقيقة الزهد قد خلصت إلى قلبه فامتلأ من الذكر الخالص لربه سبحانه وتعالى، فالزهد عن حقيقة الإيمان والمشاهدة للآخرة تكون بعد الزهد واستواء الأشياء فيكون عدمها كوجودها بعد المشاهدة لاستواء القلب ومعه يستوي المدح والذم لسقوط النفس، وذهاب رؤية الخلق، فعندها خلص الإخلاص إلى قلبه لصفاء الزهد لسقوط النفس .

دليل ذلك الخبر الذي رويناه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لرجل: هل استويت؟ قال: وكيف استوي؟ قال: يستوي عندك المدح والذم .

وقول حارثة لما سأله عن حقيقة الإيمان: عزفت نفسي عن الدنيا فابتدأ بالزهد ثم ذكر الاستواء لحجرها ونذهبها، ثم ذكر المشاهدة بعد ذلك الحديث.

وهذه كلها مقامات في الزهد وكل من جعل الدنيا شيئاً يبلغ علمه وعلو مشاهدته جعل الزهد ضروباً، وقد نوع أهل المعرفة الإيمان في القلب من مقامين فجعل لها زهدين فقال: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب العبد الدنيا وأحب الآخرة وعمل لها، فإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها.

وقد كان أبو سليمان يقول: من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه سبحانه وتعالى شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين ولهذين التاسيين دليل من السنة، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سئل: أي الناس خير. فقال: من يشنأ الدنيا ويحب الآخرة، فأوقع الشنآن للدنيا والوقوع ضرورة من حب الآخرة، والمقام الأعلى دليله: من جعل الهموم هما واحداً كفاه الله تعالى أمر آخرته ودنياه. والهم الواحد بوجد واحد لرب واحد هو وصف عبد متوحد لواحد فقال الى واحد وقد وهب له خلقاً من أخلاقه فهو الأحد بوحدانية صفته وعبد متوحد بوجده بين خلقه، فهو منفرد الهم مجتمع القلب، وانفراد الهم يكون بعد محو الهوى ومحوه بعد امتحان القلب للتقوى واجتماع القلب يكون مع طيب النفس ولهما ننتزل بالإيمان أو خلاصهما بالتزكية والرضا كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم -: طيب النفس من النعيم.

وقال الله تعالى : قد أفلح من زكاها . وقال تعالى : راضية مرضية ، فيكون مؤيدا بالروح ، خلقه بأخلاق الإيمان ، حلاوة للقلب بشاهد اليقين .

وقال وهب بن منبه : وجدت فيما أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام : من أحب الدنيا أبغضه الله تعالى ، ومن أبغضها أحبه الله تعالى ، ومن أكرم الدنيا أهانه الله ، ومن أهانها أكرمه الله تعالى .

وأما علماء الظاهر فقالوا : الزهد في الدنيا هو موافقة العلم والقيام بأحكام الشرع وأخذ الشيء من وجهه ووضعه في حقه ، وما خالف العلم فهو هوى كله فذكروا فرض الزهد ظاهره ، ولم يعرفوا دقائقه ولبه .

وقد روينا عن سفيان بن عيينة والثوري معنى هذا أنهما سئلا : أيكون الرجل زاهدا وله مال ؟ قالا : نعم إذا كان إذا ابتلي فصبر وإذا أنعم عليه شكر .

قال ابن أبي الحواري فقلت له : يا أبا محمد يعني ابن عيينة ، قد أنعم عليه فشكر وابتلى فصبر وحبس النعمة كيف يكون زاهدا فضربني بيده وقال : اسكت من لم تمنعه النعماء من الشكر ولا البلوى عن الصبر فذلك الزاهد ، ووافقهما الزهري فقال كذلك ، وقد فضل ذلك أبو سليمان فقال ابن أبي الحواري قلت له : أكان داود الطائي رحمه الله تعالى زاهدا ؟ قال : نعم ، قلت : بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا ، فأنفقها في عشرين سنة ، فكيف يكون زاهدا وهو يمسك الدنانير ؟ فقال : أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ، ولعمري إنا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعما بالمال الصالح المرء الصالح » والمال الصالح هو الحلال ، والمرء الصالح المنفق ماله بالليل والنهار سرا وعلانية في سبيل الله ابتغاء مرضاته كما وصفه الله تعالى ومدحه .

وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا من يحب » والذي يحبه الله تعالى حين أعطاه الدنيا لا يخالف حبيبه إلى هواه ، ولا يؤثر نفسه على محبة مولاه تبارك وتعالى . إذ قد تولاه فيما أعطاه .

وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » ، والطاعم الشاكر هو الذي يستعين بطعمته على خدمة مولاه ، ويعبده شكراً لما أولاه .

وقد قالوا في الزهد وصفان جامعان لأحوال القلوب :

قال مضاء بن عيسى : قلت للسياح الموصلي : يا أبا محمد ، إلى أي شيء أفضى بهم الزهد ؟ إلى الأنس بالله تعالى .

وقال عثمان بن عمارة : كان يقال : الورع يبلغ بالعبد إلى الزهد ، والزهد يبلغ به حب الله تعالى .

فهذان الحالان غاية الطالبين الحب للجليل ، والأنس بالطيف فمن لم يتحقق بالزهد لم يبلغ مقام الحب ولم يدرك حال الأنس ، ثم إن سرائر الغيوب في مقام الحب والخلة ، وفي حال الأنس والقربة (١)

---

(١) انظر كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي حـ١ صـ٥٦٨ وما بعدها .

* النص الثالث *

* من كتاب الفتوحات المكية *

* للشيخ محي الدين بن عربي (٦٢٨هـ) *

« الباب الثالث والتسعون في الزهد »

الزهد ترك محلل ومحلل ... ومحلل فازهد فزهدك أن زهد

والترك شئ لا وجود لعينه ... وله لسان في الشريعة يحمد

في الزهد تعظيم الأمور وما له ... عند المحقق قيمة لا تجحد

الزهد لا يكون في الحاصل في الملك ، الطلب حاصل في الملك ، فالزهد في الطلب زهد لأن أصحابنا إختلفوا في الفقير الذى لا ملك له ، هل يصح له اسم الزاهد ؟ أو لا قدم له في هذا المقام ؟ فمذهبنا أن الفقير متمكن من الرغبة في الدنيا ، والتعمل في تحصيلها ، ولو لم يحصل فتركه لذلك التعمل والطلب والرغبة عنه يسمى زهدا بلا شك ، وذلك الطلب في ملكه حاصل فلهذا حددناه بما ذكرنا ، ولقد فاوضت في هذه المسألة جماعة من أهل الله فأكثرهم قال بقولنا ، وسبب ذلك أن صاحب الذوق لا بد أن يرى لتركه طلب الدنيا والرغبة فيها أثرا إليها في قلبه ، فلو لم يكن للأمر وجود وعند الله واعتبار ما صح أن يكون له أثر في التجلي الإلهي لصاحب هذا الحال ، وهو الصحيح ، فلنقل إن الزهد الذى ذكرناه مقاما وحالا ، فمقامه الإلهي مطلق ، وهو زهده في كل اسم إلهي يحول بينه وبين عبوديته ، والرباني مقيد بصفة التنزيه عن حكم هذا الاسم عليه ، والإحسان هو

صرفه على ما يستحقه أعنى هذا المزهود فيه ، فأما فى الملك من كونه مسلمًا فالزهد فى الأكوان وهو الحجاب الأبعد الأقصى ، وأما فى الجبروت من كونه مؤمنًا فالزهد فى نفسه وهو الحجاب الأدنى الأقرب ، وأما فى الملكوت من كونه محسنًا فالزهد فى كل ماسوى الله ، وهنا يرتفع الحجاب عند الطائفة . قال أبو يزيد الأكبر : ليس الزهد عندى بمقام أنى كنت زاهدًا ثلاثة أيام أول يوم زهدت فى الدنيا ، واليوم الثانى زهدت فى الآخرة واليوم الثالث زهدت فى كل ماسوى الله فنادانى الحق : ماذا تريد ؟ فقلت : أريد أن لا أريد ، لأنى الذى أنا المراد وأنت المريد ، وقد انتقد على هذا القول بعض أهل الطريق ، وجهل مقام أبى يزيد فى ذلك . وقد تكلمنا على قصده بهذا القول وبينا ، وفساد هذا القول ، أعنى قول المعترض عليه فى غير هذا الموضع ، وهو من المقامات المستصحبة للعبد مالم ينكشف له ، فإن انكشف الغطاء عن عين قلبه لم يزهد ، ولا ينبغى له أن الزهد ، فإن العبد لا يزهد فيما خلق له[١] ولا يكون زاهد إلا من يزهد فيما خلق من أجله[٢] وهذا لا يصح كونه ، فالزهد هو القائل به جاهل فى عين الحقيقة ، لأنه ما ليس لى لا أتصف بالزهد فيه وما هو لى لا يمكننى الانفكاك عنه فأين الزهد ، ونقل صاحب هذا الحكم هذا هو الزهد الذى يستحق هذا الاسم ولنا فى هذا المقام الزهدى نظم

١- ما خلق له هو العبادة " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "

٢- ما خلق لأجله : الكون وما فيه لا هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا منه "

* الغيب منك وأنت لا تدرى * فالزهد مثل صلاة الوتر *

* وسراج نفسك نوره متعلق * بجميع ما فى الكون من أمر *

* فاطفئ السراج يزول كل تعلق * فالزهد فيك كليلة القدر *

* هى من غروب الشمس حتى تنتهى * بالحكم فيك كمطلع الفجر *

يقول: لو رأيت الحق لم تزهد فإن الله ما زهد فى الخلق وما ثم تخلق إلا بالله فيمن فى الزهد انظر الى هذا المعنى فإنه دقيق جداً "٢١١"

* الزهد ترك وترك الترك معلوم * بأنه مثل ما فى الكف مقبوض *

* الأرض قبضته وصور الغنى فأين الترك * فهو محال فيك مفروض *

* لا ينعم الحق بالنعما فأنت لها * وقد زهدت فهذا اللفظ تعريض *

* فالزهد ليس له فى العلم مرتبة * وتركه عند أهل الجمع مفروض *

اعلم أن ترك الترك احسان، والزهد ترك، وترك الزهد ترك الترك، فهو عين رجوعك الى ما زهدت فيه، لأن العلم الحق رده اليه والحال يطلبه فماله حقيقة فى باطن الاسم لكن له حكم ما فى الظاهر فيصح هذا القدر منه، ولكن هل يقع الإمسال الذى ترك الزهد عن رغبة فى الممسوك؟ أو لا عن رغبة؟ فاختلفت أحوال الناس فيه، فمن أمسك لا عن رغبة فهو ناظر أمين على امسال حقوق الغير حتى يؤديها الى أربابها فى الأوقات المقررة المقدرة،

"٢١١" الفتوحات ص ١٧٧ ج٢

وقد يكون عن كشف وعلم صحيح بأعيان أصحابها، وقد لا يكون، غير أنه لا يتناول منها شيئاً في حق نفسه إذ كان بهذه الثابة، وهو أمسك عن رغبة في المسوك وهم رجلان الواحد راجع عن مقام الزهد بلا شك لمرض قام به في نفسه، فهذا ليس بشئ، والرجل الآخر وهم الأنبياء والكمل من الأولياء، فأمسكوا بالطلاع عرفاني انتج لهم أمراً أعشقه بما في الامساك من المعرفة والتجلي بالكمال لا عن بخل وضعف يقين، أرسل الله على أيوب رجل جراد من ذهب فسقط عليه فأخذ يجمعه في ثوبه، فأوحى اليه: الم أكن اغنيتك عن هذا؟ فقال: لا غنى لي عن خيرك.

فأنظر ما أعطته معرفته، وما زهد عن زهد إلا لطلب الأكثر، فزهد في الأقل «قل متاع الدنيا قليل» فأين الزهد؟!! فما تركوا الدنيا الا حذراً أن يزاحم في الأخرة، فهذا عين الطمع والرغبة فيما يتخيل فيه أنه زهد، وهذا هو مقام ترك الزهد وأما حاله فالزهد في الدنيا، ولهذا الاشياء.

* * * * *

* الفصل الرابع *

* من كتاب رسائل ابن سبعين *

* للشيخ محمد عبد الحق بن سبعين (٦٦٩ هـ) *

* فضيلة الذكر في مقام الزهد *

الزهد العرفي هو الترك المعتدل لما لا يجب، أو لما يشغل، أو يضر نوعه وإن لم يضر شخصه، وهو الذي يحض على الورع من صفة نفسه، ويسود الزاهد بسببه، وإذا انضاف إليه الخوف والعلم استقام الأمر، وهو ينظر إلى التوبة في البداية فيقوى طلبه، وينظر إلى السلوك ويتلذذ به ويأنس بتحقيقه فيه، ويتطلع إلى الغاية ويتردد في أمره لأنه قد يظهر له في الغاية أنها لا تنال إلا بعلم ما، وبسبب ما يكون متحيراً في أمره لأنه ندبه أن يطلب الكمال فيطلبه الشرط ببعض ما خرج عنه أن يعود إليه كما يجب ويطلبه المقام بالثبوت، والهمة إن علت قد تطلب الأول فإن جهلت فتقنع بالأول، وتحمل الثاني: هذا هو زهد البعض، والزاهد غير مراد، وأردت بهذا الكلام التوسط *

وأيضاً الزهد هو فقد ما إليه يحتاج بإرادة. وأيضاً الزهد هو الفقر، غير أن الفقر العرفي أجل منه، وهو المذكور في « العفرية »، والزهد العرفي أجل من اللغوي وأيضاً الزهد - إن كان على هذا الحال والحمل - كبير بمعنى أنه هو بحسب خيره فتارة تراه في الأمر المهول من الدنيا، وأخرى متصوراً في الحقير منها، ونزهته عليه مملوءة بالحكم وبالأمور الشرعية المالكة الكليات المعتبرة في الدنيا والآخرة يحمد بالجملة، وقد يحمد منه الزهد المنسوب، والزهد المحسوب، وهو إما في النفس وهو زهدها

فى عالمها ومنصبها وصيتها ورياستها وينهزم فى هذا جميع اخلاقها، واما فى
الأمور التى فوقها، وهى اذا انفردت بكمالها فتزهد فى الأمور المنتظرة المعول
عليها عند الجميع - مثال ذلك : يزهد فى العلم بمعنى لا يغتبط به فى وقت ما،
لأنه يطلب المعرفة، ويزهد فى المعرفة لأنه يشهد المعروف ، ويزهد فى
التضرع الى الله عز النازع عن القرب سر الفاعل ابطل عليه رسم الفعل،
ويزهد فى التأهب لنعيم الآخرة لأن اللذة القائمة بالجوهر استغنى
بها عن كل لذة ، ويزهد فى ذلك لأن القصد المطلق له، ويزهد فى ذلك
لأن الهيبة هيبة فى الكنة ، ويزهد فى ذلك لأن الحو حضرة ، ويزهد
فى ذلك ، لأنه حد لول الرضا ، ويزهد فى ذلك لأجل ذلك ، وفى ذلك انه
ذلك ، وكذلك فى وقت وجود ذلك والزهد الذى فى الجسم هو يعظم بحسب
وجوه المتروك - مثال ذلك : الزهد فى الأكل الذى لا ينتفع به إلا بجسم
الغير المضطر وهو مع هذا الحسن يستجلب شهواته من الصور الطيبة ، وجاه
يجلب العسير ويكون خليفة ملك الأرض وله نفس تطلب اللذات الطيبة
ويجد فى الطلب قوة استعداد وسلامة اعضاء وقوى وملكة خصال يعجز
عنها تفرحه بالحمد والتعظيم ، وما أشبه ولا نسبة بينه وبين من هو دونه
مع كونه لا تبعة تلحقه وجلته تقنيه . فاعتبر ذلك وقس به وانسج على
منواله ، الواحد فى الوجود . والوجود قد يطلق لهذه المقامات بمعنى ما ،
وبالوجه التى يقال النقل ورحل واخذ الأخو وظهر الصعود الى غير ذلك
لا طلائه يعود الى العرف الأول فيهمله وهذا النوع من الزهد
الى هنا ف .

وأما الزهد الجليل فهو الذى يكون به الزاهد غريبًا فى الآخرة ولا يتعرض الى الأسباب المطلقة ويكون معها تاركًا على الإطلاق لغير الله على الإطلاق ، وهو بالجملة زهد لكى يكتسب عماله ، فإن كان زاهدًا على الإطلاق حتى فى الذى يسرى له من الله كان مطلقًا ولا خير فيه ، الا إن كان خيره الله ، أعنى أنه المقصود المعين التى لا يصح معها طلبها لها والأمر جهتها بحسب ما يقال . فاترك ما يضرك ولنقول : ومن حرر الوحدة - وهذا بمعنى سلب وجمع على مجموعة ، مجمع وعوض بزهده ويجرى بذلك .

فإذا كان الأمر على ما ذكرناه وعليك أن تعلم أن الذكر هو الأصل فى ذلك كله . وما حملنى على ذكر الزهد وتقسيم ما ظهر لى فيه بحسب هذا التقييد وكونى أخذت فيه بزيادة ما أردت بذلك التنبيه على خساسة الدنيا وكونها مهلكة وهى العلة القريبة والفاعلة بالجملة وصرف الهمم الكريمة - فافهم ! .

ونعود الى فضل الذكر فنقول : ما من نوع من هذه الأنواع الا وقد يجمع لك فى كلمة واحدة وهى جميع : من ذكر الله ولم يغنه عن غيره ولا آنس به ولا احتج به على ما سواه فلا خير فيه ، ويكاد أن لا يمكن منه الخير ولا يصح فيه وجوده ، وأعوذ بالله منه .

وأيضًا الزاهد من أجل الله هو الذى يزهد فى أفعاله ، ولا يزهد فى الله ولا فى صفاته . وذكر الله هو الذى يثبت على حاله ، وهو الذى يثبت المقامات . واذا زهد الزاهد وهو يذكر ربه ترك ما يجب تركه وتمسك بما يجب من أجل الله ، والله هو الكفيل به لأنه عز وجل يقول : أنا

«أنا جليس من ذكرني»، والحاكم العادل الرشيد المعلم المدبر الغني إذا تصرف عبده معه أعني بحضرته. وهو يذكره بمعنى أنه يشاوره ويطلب منه أن يختار له الأولى. وهذا هو الذكر النافع الذي يعقل فيه هذا كله وما يمكن مولده المذكور أن يترك ما يجب أن يترك وليتمسك بما يجب أن يتمسك به، بل يجري في أموره وأفعاله نحو الصواب فذكر الله هو المعلم الأكبر، وهو شيخ الشيوخ. وهو يعلم الملك، وليعقل في حركة الفلك، وبه يبعث النبي وبه يعلم ويعقل ويحكم، وكذلك أتباعه إذا تم على سراره، أعني الذكر الحكيم.

وهذه مقامات ذكرت فضيلة الذكر فيها ليظهر لك بجده في كل طور ولنوع من أنواع شروط الكمال. ولما ذكرته قبل أنه بماهيته في كل المقامات من حيث هو جزء ماهيتها - احتجت إلى ذكره هنا من حيث هو متمم ومقوم. وبالجملة هو الفاعل للخير والشرف والكمال من حيث تأثيره في النفس الغافلة وبكونه يذكر وبالوقوف مع واجب مولوله وما أشبه ذلك وهو المارة من حيث أنه الموضوع الأول وهو بهذا النوع يقال باشتراك بأنه: الكتاب والسنة، والجميع يرجع إلى معناه الموجب. وأنا عنيت به هذا المعنى وتعلق اصطلاح به وخصصته بذلك. والمشاحة في الاصطلاح من شيم أهل القصور، وهو الصورة، فإنه المعنى المحمود والشكل الظاهر في الضمائر وفي التعبدات، وهو المتمم لما تقدم»(١).

---

(١) انظر من رسائل ابن سبعين رسالة النصيحة أو النورية ص ١١ الدار المصرية للتأليف والترجمة طبعة [illegible] ١٩٦٥.



مطبعة الحرم

• طباعة أوفست • مطبوعات تجارية وفنية • تجليد

أمام ٤٢ شارع الشيخ خفاجة - راغب باشا